

بعد أن سقطت آشور في نهاية القرن السابع ق.م حُلَّ محلها كمركز للإمبراطورية العالمية أولاً بابل وابتداءً من عام (٥٣٩) إيران.

ولم تُعمَّر بنايات آشور زمنًا طويلاً بعد الدولة التي أنشأتها..

وحتى في أيام عز آشور فإن المعابد الرئيسية والقصور لم تكن لتستمر في بهائها، وإذا حكمنا عن طريق سجلات الترميم فإن أكثر أيامها كمراكز صالحة للاستعمال قلما تجاوزت ثلاثة قرون، وغالباً ما كانت أقل من ذلك.

ومع أن أبنية منطقة ما بين النهرين القديمة كانت جميلة بما فيها من الحجارة والقرميد المشوي، إلا أنه وعلى العموم كانت أبنية كثيرة تتألف من القرميد والطين وهو الوضع الذي يتأثر بهطول الأمطار، ومع أن المعدل الوسطي لهطول الأمطار في آشور منخفض نسبياً فإن مثل هذه الأمطار التي تصاحبها أحياناً العواصف الطويلة الأمد في آشور القديمة مما يسبب دخول الماء في شقوق موجودة في سقوف المنازل.

وبعد سقوط آشور ساءت الأحوال، فقد حدثت الحرائق التي ساهمت في تخريب كثير من المنازل بشكل سريع، وفي خلال قرنين لم يبق أي شيء يمكن تمييزه في العواصم الآشورية ما عدا المعالم الخارجية لأسوارها وحصونها.

وقد علمنا ذلك من الوصف الذي أطلقه كنز نيفون وهو أحد الجنود المؤرخين اليونانيين عندما حضر في عام ٤٠١ ق.م بصفته قائداً لأحد الجيوش المرتزقة التي كانت تحارب في طريق رجوعها من بلاد العجم إلى بلاد اليونان.

فقد نصب بعض المعسكرات مع رجاله في أماكن لم تكن معروفة بالنسبة إليه، ولكننا نعرفها عندما يشير إلى أماكن مثل كالاخ ونيوى، ويبدو بأن كلا المدينتين قد أصبحتا أمثلة لما كنا نعرفه من الكلمة العربية (تل) فالتل هو مرتفع

صناعي ناتج من احتلال بشري قديم، وقد كان المستوطنون الأوائل يبنون بيوتهم ومعابدهم على أرض بكر وغالباً ما تكون على مرتفع طبيعي بسيط.

وعندما انهار وسقط هؤلاء المستوطنون الأولون وانهارت الأبنية فإن الجيل الثاني كان يسوّي الأنقاض ويعيد البناء فوق الأبنية القديمة.

وهكذا يرتفع مستوى سطح الأرض، وهذه العملية تسهم في زيادة تراكم الأتربة والأوساخ، وفي بعض الحالات كانت المعابد والقصور تبنى فوق منصّات، وكانت هذه العملية تستمر دون كلل أو ملل بحيث إنه وفي خلال قرون أو آلاف السنين كانت المستوطنة ترتفع عالياً فوق السهل الأصلي.

ونحن نعرف على سبيل المثال أن جزءاً من كويونيجيك ومنطقة القصر في نينوى ترتفع تسعين قدماً فوق الأرض البكر.

وعندما أصبحت المستوطنة خالية من السكان بسبب الحرب والأمراض أو لأسباب أخرى عندها أصبحت هذه المناطق وبسبب العواصف الرملية التي طالما اجتاحت العراق والتي كانت تغطي خرائب الأبنية وبالتدريج عملت على إنشاء مرتفع ذي سطح أملس ومكسور.

وذلك باستثناء بقايا النراجورات والأبنية المرتفعة التي تبرز إلى الأعلى فوق المستوى المعروف، وإن مثل هذه التلال المتدرجة في أشكالها ابتداءً من أقل من فدان حتى ما يزيد على ثلاثمائة فدان بالنسبة لقلعة سرحان (آشور القديمة) وهذه الأبنية متناثرة في جميع أنحاء منطقة ما بين النهرين.

وهناك أماكن يزيد عددها على المئة ومن الممكن رؤيتها لو زار كنزنيفون منطقة كالاخ ونينوى في ظروف مواتية فإنه كان سوف يعلم شيئاً عن هوية تلك الأمكنة وتلك الخرائب من السكان الأصليين، إذا إن سقوط الإمبراطورية الآشورية لم يمسخ من الوجود السكان الأصليين فقد كان هؤلاء وبشكل واضح مزارعين وفلاحين.

ونظراً لأن آشور كانت تحتوي أفضل الأراضي المختصة بزراعة القمح في الشرق الأدنى، فإن أنسال الفلاحين الآشوريين سوف بينون قرى جديدة حسب ما تسمح به الظروف فوق المدن القديمة، ويستمررون في حياتهم الزراعية وهم يتذكرون تقاليد المدن السابقة.

وبعد سبعة أو ثمانية قرون أصبح هؤلاء مسيحيين، وقد عمد هؤلاء المسيحيون مع المجتمعات اليهودية المبعثرة بينهم إلى إحياء ذكرى مواقع أجدادهم الآشوريين، بل لقد ربطوها مع التقاليد المأخوذة من التوراة، ولقد أصبحت التوراة عاملاً قوياً في إحياء ذكرى آشور ولاسيما نينوى، فقد كانت نينوى واقعة في مركز الخرافات التوراتية، هناك قصة النبي يونان الذي حاول عبثاً أن يتخلص من واجباته الدينية بالتبشير لدى العاصمة الوثنية.

وفي جزء من خرائب مدينة نينوى كان هناك مرتفع مقدس وكان هذا معبداً آشورياً عمد المسيحيون واليهود إلى وصفه بأنه المكان الذي كان النبي يونان يبشّر فيه، ولذلك فقد بنيت كنيسة في ذلك المكان وعلى ذلك الموقع، وعندما استولى المسلمون على منطقة ما بين النهرين في القرن السادس م. جعلوا يونان (يونس) وأصبح محترماً عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ولقد حل محل الكنيسة مسجد ولكنه ظل محتفظاً باسم يونان.

ولقد كتب الجغرافيين المسلم "المقدسي" في القرن العاشر عندما وصف منطقة الموصل: ((هنا سامح الإله شعب النبي يونان)) أفلا تحتوي هذه المنطقة على مسجد النبي يونس في تل التوبة الذي يقال: إن سبع زيارات لهذا المسجد تعادل الحج إلى مكة، وهناك زائر آخر مسلم وصل إلى الموصل في نفس القرن وهو ابن حوقل قد تحدث عن أرض نينوى الخصبة حيث دفن النبي يونان.

إن أحد العوامل التي ساهمت في عظمة آشور هو موقعها على الطريق الطبيعي الرئيسي على نهر دجلة، ولقد أكد هذا العامل مرور الحجاج الكثيرين والتجار في كل قرن من القرون بخرائب آشور، وكان أول الرحالة هؤلاء الرابي اليهودي بنيامين من توديليا في إسبانيا، وقد رحل هذا إلى عدة مدن من الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر ب.م وكان يستطلع المجتمعات اليهودية والمواقع التوراتية ويكتب ما يلي عن الموصل:

((إن الموصل تمثل آشور العظمى، ويعيش فيها حوالي سبعة آلاف يهودي، وتقع الموصل على نهر دجلة وهناك جسر يصلها بنينوى، ونيوى هذه الآن خربة ولكن ضمن خرائبها هناك بعض القرى والمجتمعات ويمكن تحديد مساحة نينوى من خلال أسوارها البالغة أربعين ميلاً فارسياً، وتمتد حتى مدينة أربيل وفي بلدة آشور هناك كنيس (عوبيا) الذي بناه (يونان)).))

وهنا ومع التحديد الدقيق لموقع نينوى نجد تقديرات مبالغاً فيها عن طول أسوار المدينة، ولقد تأثر هذا بالرغبة في التوافق مع الأقوال التوراتية التي تذكر أن نينوى كانت بلداً كبيراً للغاية على مسيرة ثلاثة أيام.

وقد وقع (بنيامين) بالخطأ عندما ذكر أن الموصل هي نفس مدينة آشور، ومع ذلك فإن التحديد الصحيح لموقع آشور إلى الجنوب معروف بشكل تقليدي وذلك كما نعلم من جغرافيا عربي آخر، وهو أبو الفداء من أوائل القرن الرابع عشر ب.م وهو يقول عن الموصل:

((وفي المقابل على الضفة الشرقية تقع خرائب نينوى وإلى الجنوب من الموصل يلتقي نهر الزاب الأصغر بنهر دجلة قرب خرائب مدينة آشور)).))

وفي القرن السادس عشر زار الموصل شخص اسمه (راؤولف) وهو ألماني يوصف بأنه مشهور بمهارته في معرفة المنتوجات الطبيعية وأعمال العاج، ويقول ما يلي في وصفه تلك الزيارة:

((وفي هذا المكان وفيما حوله تقع المدينة الجبارة نينوى التي كانت عاصمة آشور، ولكن ليس هناك في هذا الوقت أي آثار ظاهرة ما عدا القلعة الواقعة على التل وبعض القرى التي يقول السكان عنها بأنها كانت تابعة لها في الأزمنة القديمة)).

إن غياب الآثار البارزة ذُكر مرة ثانية في أوائل القرن السابع عشر من قبل المبعوث الإنكليزي إلى بلاط دولة فارس وهو (أنطوني شيرلي)، وهو يخبرنا أنه لم يبق هناك حجر مستقر في نينوى من الممكن أن يعطي الانطباع بوجود مدينة صغيرة، ونظراً لافتقارها إلى وجود الآثار لم يكن لدى (السير أنطوني) أي شك بالنسبة لموقع نينوى وذلك لأنه يضيف ما يلي:

((وعلى بعد ميل واحد من هناك مكان يدعى الموصل وهي شيء صغير ولكنها شاهد على عظمة الآخرين وعظمة الآلهة أكثر من إظهار أي مظهر من مظاهر العظمة نفسها)).

وكان هناك أحد المعاصرين وهو (جون كارترايت) الذي كان يستطيع أن يرى في الخرائب أكثر من رأي (السير أنطوني) وهنا نراه يصف وصوله إلى الموصل ويقول:

هنا وفي هذه السهول الآشورية على ضفاف دجلة بُنيت نينوى من قبل نمرود ولكن أنهاها نينوس، ويبدو أنه بمشاهدة الخرائب والأسس (التي رأيتها رأي العين) إنها كانت مبنية ولها أربعة جوانب، ولكن لم تكن هذه الجوانب متساوية، ولم تكن مربعة لأن الجانبين الطويلين كان كل منهما بطول مائة وخمسين فيرلونج أي: ستون ميلاً، وأما الجانبان القصيران فيبلغ طول الواحد (٩٠) فيرلونج أي: (٣٦) ميلاً.

لقد كان تخمين (كارترايت) مبالغاً فيه ولكنه قد حدّد بدقة أطوال أسوار نينوى، ولقد سبقه في ذلك الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر وهو ابن بطوطة الذي ذكر موقع نينوى بالموصل وهو يقول:

((لا تزال آثار السور المحيط بالمدينة قائماً ومن الممكن رؤيته وتُرى مواقع البوابات التي كانت فيه بوضوح)).

وهناك رجل فرنسي هو (ج.تافنير بارون أبونوي) وهذا قد زار الموصل في النصف الثاني من القرن السابع عشر وقد زاد على تقديرات كارترايت حول أبعاد مدينة نينوى وهنا نقرأ ترجمة معاصرة لما ذكره نقرأ:
ليس هناك ما يستحق الذكر في موقع الموصل..

ولكن الآن دعونا نعبر دجلة، وهناك جسر من القوارب، لنرى منظراً حزيناً لخرائب مدينة أثارت ضجة كبيرة في العالم مع أنه لم يُعد هناك ما يذكرنا بعظمتها الماضية.

ولقد بُنيت على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة على الجانب الآشوري ولكنها أصبحت الآن كومة من القاذورات ممتدة على بعد حوالي فرسخ على طول النهر، وهناك عدد من السرايب والكهوف غير المسكونة ولا يمكن لأحد أن يحزر فيما إذا كانت هذه هي المسكن القديم للسكان أو فيما إذا قد بنيت أي بيوت في ذلك الموقع في الأزمنة القديمة وعلى بعد نصف فرسخ من نهر دجلة تقع تلة صغيرة تحيط بها البيوت وقد بُني مسجد هناك.

ويقول سكان المنطقة إنها هي المكان الذي دُفن فيه يونان، وبعد أن قطعنا نهر دجلة سافرنا لمدة ثلاثة أرباع الساعة من نينوى (أي: ميلين أو ما يقارب ذلك) وابتداء من ضفتي النهر حتى المكان الذي سكنا فيه في ذلك المساء ولم نر أي شيء سوى الخرائب المستمرة التي تجعلني أعتقد أن المكان الذي تقع فيه نينوى القديمة.

وحتى الآن تتفق التقاليد وتقارير الرحالة بشكل إجماعي وتؤكد أن الخرائب المقابلة للموصل هي نينوى القديمة.

ولكن ظهر أخيراً أحد المعارضين، ففي حوالي منتصف القرن الثامن عشر كان الرجل الفرنسي (م. أوتو) يميل إلى وجهة النظر التي مفادها: إن نينوى لم

تكن مقابل مدينة الموصل، ولكنها كانت تتمثل في بعض الخرائب الواقعة في مكان يدعى (إسكي موصل) (أي: الموصل القديمة باللغة التركيّة) وهي على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال.

وقد أيد هذا الرأي بما قيل إنما هو ادعاءات باتصال أسكي موصل القديمة ببيونان مع أنه كان عاماً بالتقاليد التي نقلها أبو الفداء وغيره من الجغرافيين العرب، وقد أنهى كلامه بقوله:

((إن كلاً من أبي الفداء والسكان الأصليين كانا مخطئين.)) ولكن نظراً لأنه ليس هناك من تعرّف على التقاليد بالنسبة للموصل القديمة لذلك فمن المرجح أن هذه المشكلة كان سببها هو (أوتور) نفسه.

وعندما نتحدث عن التقاليد الخاصة بالموصل في الأزمنة القديمة فإن السكان في شمال العراق لا يزالون يفضلون استعمال الاصطلاح الذي يعين الموصل القديمة.

وهذا وفي زمن أوتور كانت اللغة التركيّة هي اللفظ السائد في شمال العراق، وقد كان أوتور يتكلم تلك اللغة بنفسه، فإذا كان أوتور يستعمل اللغة التركية لكي يسأل السكان المحليين عن تقاليدهم فإنه كان من الممكن أن يشير إلى الموصل في الأزمنة القديمة باسم الموصل القديمة.

إن تحديد (أوتور) لمكان نينوى كان نوعاً من الضلال والخطأ، إذ كان من الواجب أن يكون أكثر معرفة ودراية بالأمر، وذلك لأنه وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت الموصل مشهورة بخرائبها حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى هناك.

وقد عرفنا ذلك من شخص اسمه (بارثلميو بلاستيد) وهو مهندس ومساح كان يعمل في شركة الهند الشرقية ففي عام ١٧٥٠ قد سافر إلى وطنه من بلاد الهند براً من البصرة ومع أن طريقه إلى الوطن كانت تمر ببغداد بعد الصحراء السورية إلى حلب فقد أشار ناصحاً المسافرين الآخرين أنه كان هناك بديل مناسب فقال:

(إذا كنت سوف تشعر بالتعب من فترة الانتظار في بغداد عندها يمكنك التقدم نحو الموصل ، وذلك سوف يقدم لك كمية كبيرة من التغير نظراً لأن هناك كثيراً من بقايا وخرائب قديمة سوف تسبب لك شيئاً من المتعة والتسلية خصوصاً إذا كان لديك ميول من هذا النوع.

وخلال عقدين من الزمن بعد (أوتير) صرَّح المستكشف الدانيمركي (كارستين نيبون) بأن ليس لدي أي شك أبداً أن خرائب نينوى تقع قرب الموصل ، وهو يذكر اسم قرية تدعى تونيا واقعه على تلة كبيرة ومسجد كان قد دفن فيه النبي يونان.

وهناك تلة أخرى في هذه المنطقة تدعى (كالونيا) أي: قلعة نينوى.

وفي التلة الأخيرة كان هناك قرية تدعى (كونتس جاغ) ويقوم بإبراز صورة عن منظر المسجد وقرية نونيا وأسوار المدينة.

لم تشمل إعادة اكتشاف آشور إعادة معرفة وبيان الحفريات في مواقعها فحسب ، بل أيضاً تفسير كتاباتها ، إذ إنه وابتداءً من القرن السابع عشر ق. م. ظهرت تقارير عن وجود كتابات غربية مؤلفة من إشارات إسفينية منقوشة على القرميد والحجر في مواقع قديمة مختلفة في الشرق الأدنى.

مثلاً: هناك رجل إيطالي يدعى: (بييرتود بلا فالي) قد كتب لأحد أصدقائه في عام (١٦٢٥) بعض ما قد وجده في بعض الأطلال في منطقة ما بين النهرين الجنوبية التي تدعى: (موكيجد) التي تعرف الآن باسم (أورو) القديمة ، وقد كتب يقول:

((لقد وجدت على الأرض قطعاً من الرخام الأسود وهو قاسٍ وجميل ، وهو منقوش بنفس الحروف المنقوشة على القرميد ، وبين الأحرف الأخرى التي اكتشفها في ذلك الوقت القصير وجدت حرفين متكررين في نفس المكان ، أحدهما يشبه الهرم المائل هكذا

والآخر: يمثل نجمة ذات ثلاثة أبعاد.))

ولكن المنطقة التي جَدَّبْتُ الانتباه كانت في جنوب بلاد العجم، ففي مكان يدعى: (تخت جاشد) وهو معروف الآن بموقع: (بيرسوبو ليس القديمة) إلا أن هناك بقايا ذات مظهر مؤثر لقصر رخامي وفيه عدة حجارة منقوشة.

ولقد نشر (بيترو) هذا بحثاً عن الكائنات التي وجدت هناك مع بعض المعينات، وقد أتبع هذا النظام عدة أشخاص آخرين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وبعضهم قد نسخوا ونشروا نقوشاً طويلة.

ولقد أتى الإسهام إلهاماً من (كارستن نيبور) إذ إنه لم يتم بإعداد بعض النسخ الممتازة من النقوش في (تختي جامشيد) فحسب، بل أيضاً قد عرف أنها كانت تحتوي ثلاثة أنظمة مختلفة من الكتابات وكان أحدها أبجدياً.

ونحن نعرف الآن أن الملك الفارسي داريوس الذي بنى (بيرسوبوليس) قد كتب مخطوطاته بثلاث لغات البابلية والعيلامية والفارسية القديمة، وكان لكل لغة من هذه اللغات نظام خاص من العلامات المسمارية.

أما بالنسبة للغة الفارسية القديمة فقد استعملت الأبجدية، هذا وإن نشرنسخ نيبور في عام (١٧٧٤-١٧٧٨م) قد أثار الاهتمام فيما بين الباحثين في أوروبا وقدم المادة اللازمة والحوافز لإجراء محاولات لتفسير المخطوطات، وكان الباحث الذي أحرز أعظم نجاح هو الألماني (ج. ف. جروتفند) من (جوتتجين) ولقد عرفنا مبادئ طريقته ولسوف لا نعيدها هنا.

ويكفي أن نقول: إنه وفي عام ١٨٠٢ استطاع نشر ورقة تشير إلى القيم الصحيحة بالنسبة إلى حوالي ثلث الأحرف الهجائية الفارسية المسمارية، ولكن الفضل في التفسير الكامل يعود إلى رجل إنكليزي يدعى (هنري كريسويك رولنسون) الذي سوف نقابله فيما بعد.

دعونا نرجع إلى منطقة ما بين النهرين فلقد أرسل عدد من الرحالة قطعاً من الفخار المنقوش إلى أوربة، ولكن لم تحدث أي حضريات علمية بعد ذلك، وإن أول

محاولة في هذا المجال بدأت خلال عقد من زمن (جروتفند) وأبحاثه وبحافز تلك الأبحاث جزئياً، وكان الرجل المعني هو (كلوديوس جيمس ريتش) وقد ولد هذا في فرنسا من والدين إنكليزيين عام ١٧٨٥ ب.م ولقد عُيِّن في عام ١٨٠٣ موظفاً في شركة الهند الشرقية نظراً للسهولة التي أبداهها في تعلم اللغات الأجنبية الشرقية.

وبعد سفره بعدة سنوات في الشرق الأدنى بقصد إجادة معرفته باللغة العربية والتركية وصل إلى بومباي في أواخر عام ١٨٠٧ ب.م وقد اشترك في معيشتته مع السير (جيمس ماكنتوش) المسجل العدلي في مدينة بومباي وهو فيلسوف إنكليزي متميز ورجل مثقف وفي ربيع عام ١٨٠٨ تزوج (ريتش) بالابنة الكبرى للسير جيمس) ثم تعين وهو لم يبلغ الأربعة والعشرين من العمر في وظيفة مرموقة وهي المندوب السامي للحكومة البريطانية في بغداد، والتي كانت وظيفة شاغرة.

وعندما استقر في منطقة ما بين النهرين التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فقد قام بخدمات عظيمة للمصالح البريطانية التجارية والقضائية السياسية، وكذلك خدماته بالنسبة لعلم الآثار كبيرة، ويستحق حماء (أي والد زوجته) بعض الفضل بالنسبة للخدمات الأخيرة وهي علم الآثار، وذلك كما سوف نلاحظ من النصيحة التي أرسلها السير جيمس إلى ريتش:

((إنه وعلى الرغم من الأبحاث والتحريات في المناطق المجاورة (لهيلا) التي قام بها (بيرو ديلافالي) و(نيبور) و(بوشامب) إلا أن هناك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله بخصوص آثار بابل)).

ويقول الميجور دينيل: ((إن وضع أسوار المدينة لا يزال من الممكن التحقق منها حتى اليوم نظراً لأن التضاريس والخرادق قد تركت آثاراً واضحة، هذا وإن تخطيط ووصف الموضع والآثار سوف يبرهن على وجود إحدى القطع الأثرية الغريبة التي صادف وعرضت في الأزمنة الحديثة.

ولهذا فإني أعتبر أن هذه القضية مهمة وتستحق إعطاءها اهتمامك ومواهبك، وإن موهبة الرسم عندك سوف تقدم لنا خدمات مهمة، فإذا استطعت أن تجد آثاراً مهمة فإنك تكون قد أدت خدمة عظيمة)).

وبالانسجام مع اقتراحات ونصائح حماه (أي والد زوجته) بدأ ريتش بتنفيذ أولى حفرياته العلمية (المختلفة عن الحفر لإيجاد أشياء تذكارية) وذلك في بابل وقد نشر في عام ١٨١٣ كتاباً اسمه (مذكرات حول طرائف بابل) وبعدها تبعه في عام ١٨١٨ المذكرات الثانية، وقد خلد الشاعر بايرون هذه البداية في تقصي علم الآثار من منطقة ما بين النهرين بقوله:

البعض من الكفار الذين لا يريدون

نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يعثروا

على تلك البقعة في بابل بل لأنهم لا يريدون

مع أن كلوديوس ريتش المحترم قد حصل على قطع من القرميد

وكتب كتابين من مذكراته في هذا الشأن

وفي عام ١٨٢٠ ولكي يهرب من الحرارة المخيفة في بغداد قام ريتش برحلة استكشاف من خلال جبال كردستان، وبعد رجوعه عن طريق أربيل والموصل تقدم ببعض الملاحظات القيمة حول المواقع الآشورية في كل مكان قام بالتعرف وتسجيل الشواهد على وجود الآثار القديمة، مثلاً: ((التلة الاصطناعية العالية من الزمن القديم)) في (كارواليس) (وهذا موقع آشوري ولم يكشف عنه بعد).

وفي أربيل تأكد أن ذلك المرتفع القديم الذي يطل على المدينة الحديثة كان يحتوي على كتل من المواد الفخارية مع أنه ربط هذا الفخار ببلاد العجم وليس بالآشوريين.

وكذلك قام ريتش بفحص شامل لأطلال نينوى وحتى ذلك الوقت وبمساعدة مساح يوناني قام بمسح المنطقة لإنتاج مخطط ثمين لموقع نينوى.

ويدعى المرتفع الجنوبي الرئيسي لنينوى يونس (الاسم العربي للنبي يونان) ويعتبره المسلمون في تلك المنطقة مقدساً بسبب المسجد الذي يعلو المنطقة، وبالنظر لاقتراحه مع يونان بحيث أصبح من الصعب إجراء حفريات في تلك المنطقة حتى هذه

الأيام نظراً لقدمها وهكذا أصبح البحث عن الآثار الآشورية منحصرًا في الأبنية أو ترميم البيوت، وقد استفاد ريتش من هذا الوضع وكتب يقول:

تضم قرية النبي يونس حوالي ثلاثمائة ألف بيت، وهي مبنية على المرتفع الاصطناعي القديم وهي لا تغطي مساحة كل هذا المرتفع، ولقد تأكد قدم هذه المنطقة عن طريق وجود بعض الآثار التي ظهرت عند الحفر فيها بشكل عميق عندما ظهرت قطع من القرميد وقرميد كامل، وقطع من الجبس وكلها مغطاة بالنقوش على الطريقة المسمارية.

واليوم وجدنا بعض القطع تحت أسس بعض الأبنية، وكان أحدها قطعة مكسورة من الجبس وعليها أحرف مسمارية، وجدت في مطبخ بيت ضئيل، وقد ظهر أنها جزء من جدار ممر صغير يقال: إنه يصل إلى الجبل.

ولقد حفر بعضهم في هذه المنطقة في السنة الماضية، ولكن نظراً لأن هذه الحفريات ينبغي أن تتم تحت المنازل وخوفاً من تعرض هذه المنازل للهدم فقد أقفلوا هذا المشروع، وملؤوه بالقاذورات.

وعلى بُعدٍ قليل وفي غرفة صغيرة تسكنها امرأة من سكان البلدة، وقد كانت هذه المرأة لطيفة جداً، وبكل أدب سمحت لنا بالدخول وفحص المكان في أوقات فراغنا.

وهناك وجدنا نقشاً آخر محفوراً بأحرف مسمارية كبيرة على قطعة من الجبس، وهذا النقش محيرٌ وهو يحتل مركزه العادي، ومن الممكن أن نجد آثاراً قديمة أخرى في هذا التل، ولكن القسم الأكبر منها كان مغطى بأبنية من البيوت الصغيرة، ولهذا فإنه لا يمكن اكتشاف أي شيء إلا عند ترميم هذه البيوت أو سقوطها وهدمها.

وفيما بعد قام ريتش بفحص كامل سطحي في أكبر هذين المرتفعين في نينوى وكيونيجيك وهو يصف هذه الأعمال بما يلي:

((إن جوانب هذا المرتفع منحدره وقمته منبسطة، وعلوه حوالي ثلاثة وأربعين قدماً، ومحيط قاعدته (٧٩٦) قدماً، وإن قمة هذا المرتفع لا تشير إلى أنه كان أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الواضح أنه كان هناك أبنية فوقه وهي على الأقل حول أطرافه.

ومن الممكن استخلاص الحجارة والقرميد في كل مكان من هذا المرتفع، وبينما كنا ننظر حول هذا المكان وجدنا قطعة من القرميد والفخار مغطاة بشكل كثيف بكتابة مسمارية جميلة.))

لقد تعرف ريتش طبعاً على القصص التي تتعلق بالخرائب قرب الموصل في نينوى، ولكن لم يكن لديه أي برهان حول هويتها، وقد اقتنع بالقول هذا بالنسبة للخرائب الباقية التي رآها في النبي يونس وكيونيجيك والأسوار المحيطة، ولكن سواء كانت هذه تنتمي إلى نينوى أو أي مدينة أخرى فإن هذا مسألة أخرى لم تثبت صحتها بعد، ولكن ليس هناك مجال للشك في كونها من عمر واحد وصفات واحدة.

ولقد لفت ريتش النظر إلى أهمية المرتفع في قلعة شيد خان الذي نعلم الآن أنه موقع عاصمة آشور القديمة، وقد قدم صورة له تظهر أدناه:

((يظهر أن هذا المرتفع مصنوع من التراب وفي أسفله جدار متهدم، وهو مرتفع فوق منصّة من الخرائب، ولقد كانت هناك أكوام من القمامة مبعثرة هنا وهناك حيث يُمكن أن تُرى صفوف من الحجارة المبنية وعليها إسمنت كلسي فوق سطحها، وهناك قطع من القرميد المربع.

وقد كانت هذه الخرائب تستحق الاهتمام والفحص، وهي تشكل كتلة علوها نحو عشرين قدماً، وهي ممتدة باتجاه شمالي جنوبي على طول الضفة الغربية للنهر لمسافة ميلين تقريباً.))

وفيما بعد وفي نفس السنة رحل ريتش إلى شيراز في بلاد العجم عند انتشار وباء الكوليرا هناك، وقد هجر المدينة الأمير مع جميع عائلته وجميع النبلاء، والطبقات العليا من السكان، ومن كان قادراً من الطبقات الدنيا.

ولكن السيد ريتش رفض مغادرة المكان، واستمر في تطمين السكان بكل نبل ووفاء، وفي مساعدة المرضى الذين هم على وشك الموت، ولكن أخيراً انتقل إليه المرض وتسبب في وفاته، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، ولقد وصلت مجموعته عن آثار منطقة ما بين النهرين إلى المتحف البريطاني، وأصبحت من ممتلكاته.

لقد بدأت الحفريات الرئيسية بعد وفاة ريتش بعشرين عاماً، ولكن عمل عاملان بصورة خاصة على حدوث هذا.

وكان العامل الأول والأهم: هو حدوث نوع من الاهتمام بالآثار لدى الطبقات العليا من المجتمع، وقد بدأ هذا الاهتمام ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر ب.م. فقد أطلق هنري الثامن ملك بريطانيا على قسيسه الخاص لقب (مسؤول الآثار لدى الملك) ولقد زاد انتشار هذا الاهتمام أثناء القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن انتشرت عادة جمع الآثار خلال أورية حتى أن تشارلز ديكنز يذكر على سبيل الدعابة اللطيفة هذه الدعابة في كتابه (أوراق الكوبيك) نشر عام (١٨٣٦-١٨٣٧) حين أشار السيد بكوريك لاكتشافه على جانب الطريق حجراً يحمل نقوشاً مكتوبة هكذا:

**Bilst
UM
Pshi
S.M.
ARK.**

وقد كتب تشارلز ديكنز كراسة أو كتيباً يحوي على ست وتسعين صفحة بالحرف الصغير، وفيها سبع وعشرون قراءة مختلفة لتلك النقوش.

وقد كوفئ على ذلك بانتخابه عضواً فخرياً، في سبع عشرة جمعية وطنية وأجنبية لقاء اكتشافه هذا.

وكان العامل الآخر الذي ساعد على بدء الاهتمام هو عامل سياسي، لقد كانت هناك عدة بلدان أوروبية مختلفة في مقدمتها إنكلترا وفرنسا مهتمة اهتماماً كبيراً بالهند.

وكانوا يفتشون عن طريق بريّة للاتصالات بالهند، ولذلك فقد انتهزت بريطانيا وفرنسا أي مناسبة ممكنة للاستيلاء على مناطق مختلفة من الشرق الأدنى والأوسط مثل مصر ومنطقة ما بين النهرين وبلاد العجم وبسط نفوذها على هذه البلدان لحماية الطريق إلى الهند، وكانت إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية هي الاهتمام بعلم الآثار، وأرجو أن أقول فوراً:

بأنه لم يحدث أي اقتراح مهما كان ضئيلاً ولا أي تلميح، وإن علم الآثار في الشرق الأدنى كان بداية لهذا التدخل.

إذ إنه كان غطاءً لأعمال التجسس والتخريب، ولكن كان له نتائج شريفة سواء في كسب المعرفة حول الأحوال المحلية أو بإنشاء روابط محلية من الصداقة.

هذا وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فقد كان من المحتمل بسط نفوذ البلدان الأوروبية خلال المناطق ذات العلاقة في الشرق الأدنى.

وفي عام ١٨٤٢ أنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل وعيّنت لهذه القنصلية (بول أميل بوت) وقد كان رجلاً مرموقاً ولم يكن من العرب الذين مارسوا الخدمة القنصلية فحسب، بل إنه بعد أن درس الطب في شبابه، قام برحلة حول العالم في بعثة خاصة بعلم النبات، ومع أن مواقفه وميوله كانت ضد بريطانيا بشكل عنيف، ولكن هذا لم يمنعه من إقامة صداقات حميمة مع بعض الإنكليز كأفراد، حيث قال أحدهم: إن (بورتا) قد تدمر وشكا مرةً أو مرتين.... وأرغب السفير الفرنسي في القسطنطينية بذكره قصصاً مثيرة وعجيبة حول دسائسنا في بغداد.

ولقد وعدت الجمعية الآسيوية في باريس التي كانت متأثرة كمجموعة (ريتش) من الآثار الموجودة في المتحف البريطاني لقد وعدت هذه الجمعية بدعم بورتا دعماً كاملاً في أي نشاط في علم الآثار من الممكن أن يقوم به.

وهكذا بدأ بالحفريات في كيونيجيك في كانون الأول عام ١٨٤٢ ولكن نتائج حفرياته كانت ذات مردود ضئيل نظراً لأنه لم يكن يحفر في أعماق كافية.

وفي شهر آذار عام ١٨٤٩ نقل عمليات الحفر إلى خورساباد على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من الموصل، وفي خلال عشرة أيام توصل عماله إلى جدران من الألواح الحجرية محفور عليها مشاهد من النقوش النافرة.

وعندما وصلت أخبار هذه اللقى الحساسة إلى باريس بادرت الحكومة الفرنسية إلى وضع أموال جديّة تحت تصرف بورتا لكي يستمر في هذه الأعمال، وإن ما وجده بورتا لم يكن سوى أحد القصور التي بناها الملك سرجون الثاني في عاصمته الجديدة (دور شاروكين).

والآن ينضم إلى المشهد رجل إنكليزي آخر وهو أحد عمالقة عالم الآثار في منطقة ما بين النهرين وهو (هنري أوتن لايارد) وقد ولد في باريس عام ١٨١٧ وقد رُبي حتى أصبح في الثانية عشرة من العمر في فلورنسة ثم تعهده أخيراً خاله وكان محامياً ناجحاً في لندن.

وفي شهر حزيران عام ١٨٣٩ وجد نفسه مقبولاً كمدعٍ عام في المحكمة الملكية، وبناءً على نصيحة عمه الأصغر الذي كان قد أنهى خدمته وتقاعد من منصب عالٍ في الخدمة المدنية في سيلان، لهذا قرر الذهاب إلى سيلان حيث من الممكن أن تسمح له مؤهلاته أن يصبح محامياً عاماً حيث كانت علاقاته العائلية تؤمن له النجاح.

ولقد انضم لايارد إلى شخص يدعى (إدوارد متمفور) للقيام برحلته الموعودة وكان هذا رئيسه في العمل، وقد بدأ كلاهما الرحلة في شهر تموز عام ١٨٣٩ من بروكسل براً، ولكن حماس لايارد للرحلة رافقته رغبة في التبصر والتمعن في

الأمر، إذ قبل مغادرته اتخذ خطوات لتعلم شيء عن فن الملاحة والإبحار والطرق وعادات الشعوب، وتلقى معلومات ابتدائية عن الطب والإسعافات الأولية وتعلم كتابة اللغة العربية وقليلاً من الفارسية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اطلع على ما أتيج له من معلومات حول منطقة ما بين النهرين وبلاد العجم، وبعض الكتب عن الكتابة المسمارية وفي شهر تشرين الثاني كان الرجلان في حلب، وبعد مخاطرات كاد لايارد أن يفقد حياته فيها من القبائل المعادية وصلا إلى الموصل في نيسان ١٨٤٠.

وهناك نزلا ضيفين على (وليم دانيس اينسويرث) وكان هذا طبيباً كثيراً ما يسافر في طلب الآثار، وكان لديه اهتمامات بعلم الآثار وكان قد أصدر كتاباً عنوانه "أبحاث حول آشور وبابل وبلاد الكلدان" وعلى شخص اسمه (كريستيان ربام) وهو رجل مسيحي من أهل البلاد قد عمل كمساعد قنصل، ولقد قضى لايارد وقتاً طويلاً في الموصل واهتم بمرتفع كيونيجيك، وكان يقوم بالقياسات ويبحث عن قطع من الرخام والأجر التي تحمل نقوشاً مسمارية، ولقد أخذ مضيفوه هؤلاء المسافرين إلى الصحراء لرؤية مدن أخرى مهدمة.

وهنا يصف لايارد الانطباعات التي أثرت به ويقول: ((يستحق المشهد حواليتها للتأمل، فالوحشة تتلو الوحشة، ويتهاهى الشعور بالرهبة إلى الدهشة ولقد ولدت هذه المرتفعات الضخمة في آشور انطباعاً عميقاً في نفسي، وأنتجت أفكاراً أكثر جدية، ولكن المكان المقصود كان سيلان.

وهكذا توجه لايارد ومنفورد إلى بغداد حيث التحقا بقافلة مسافرة إلى بلاد العجم، وهناك كانت الصعوبات تنتظره، فقد منعا من السفر شرقاً في الطريق الذي اقترحاها نظراً لأن هذا الطريق يؤدي إلى أراضٍ مختلف عليها ولكن قدمت لهما بعض البدائل.

ولقد قبل منفورد ولم يقبل لايارد، ولذلك افترقا وكان لايارد يأمل أن يسير في طريقه المقترحة فسافر جنوباً إلى أصفهان، وعندما وجد أنه لا يزال تائهاً قرر أن ينعطف نحو لوريستان حيث جبال زاغروس وإن جزءاً مما كان يجذبها إلى

هناك هو تحديداً أطلال مدينة شوشان (سوسة) التورائية، والمعروف أنها كانت موجودة في تلك المنطقة مع أن ذلك الموقع قد وقع عليه خلاف.

ولقد قضى بيلارد عشرة أشهر في تلك الجبال مع قبيلة بختياري وقد قسم وقته ما بين فحص الأنقاض بقصد الحصول على معلومات دقيقة حول إمكان القيام بأعمال تجارية في المنطقة، والقسم الثاني لمعالجة بعض الدسائس السياسية دعماً للقبيلة التي كانت على وشك العصيان ضد الشاه، وبعد اعتقال الخان رئيس القبيلة وضع لايارد تحت الاعتقال الصريح ١٨٤١ وبعد أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى سيلان هرب ورجع إلى البصرة، وكانت تحت الحكم العثماني.

ولقد أرسل تقريراً عن رحلاته في لوريستان إلى حملة الجمعية الجغرافية الملكية التي نشرت خلاصته في عام ١٨٤٢، وبعد رحلاته في جنوب المنطقة ما بين البحرين وبلاد العجم المجاورة وذلك لفحص الآثار والإمكانات التجارية قرر الرجوع إلى إنكلترا.

وفي هذا الوقت كان القائم بالأعمال البريطاني الكولونيل تايلور مهماً بإعطاء السفير البريطاني في استنبول معلومات كاملة عن الخلافات الحدودية بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية تلك الخلافات التي كانت تؤثر على المصالح البريطانية، وقد كان لايارد قد قرر الرجوع إلى إنكلترا عن طريق استنبول، وهكذا ونظراً لمعرفته التامة بشؤون الخلافات القبلية قرر تايلور أن يوكل به أمر الرسائل المرسلة إلى السفير كاندج مع التفاهم بأنه سوف يضع نفسه تحت تصرف السفير كاندج ليقدم معلومات إضافية إذا طلب منه ذلك.

بدأ لايارد بالرحلة تحت حماية أحد التتار (الذين كانوا مسؤولين عن المراسلات الحكومية) ولقد قضى لايارد ثلاثة أيام في الموصل ومن حسن حظه أن تعرف على القنصل الفرنسي المعين حديثاً وهو بوتنا الذي عامله معاملة حسنة، وقدم له المساعدة بأن اصطحبه إلى الخراب وكيونيجيك والنبي يونس.

وفي القسطنطينية عمل لايارد انطباعات جيدة بالنسبة لكاندج الذي كان مسروراً للاستفادة من معرفة لايارد وخبرته ولم يرغب كاندج أن يخسر خدمات

ذلك الرجل الشاب فاخترع له وظيفة ودعاه للذهاب في مهمة لكشف الحقائق في المنطقة التي تعرف بيوغوسلافيا حيث كانت الاضطرابات هناك تهدد المصالح البريطانية والمصالح الأوروبية.

وهكذا فقد خدم لايارد كسكرتير خاص للسفير، وشكل بذلك جبهة مفيدة يستطيع السفير أن يستفيد منها بممارسة نفوذه عن طريق اشتراكه في تحرير الجريدة المشهورة في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي **Malta Times** مالطة تايمز.

وعندما أنجز بوتنا لقيادته المرموقة في خورساباد في شهر آذار عام ١٨٤٣ أبدى كرمًا بإرساله إلى لايارد وصفاً دقيقاً عن هذه المكتشفات، وقد استخدم لايارد هذه المعلومات لزيادة اهتمام السفير كاندج به فأصبح يدعى خاص بالآثار في الحفريات المقامة في منطقة ما بين النهرين.

والآن سوف نقابل شخصاً إنكليزياً آخر سوف يتقاسم مع لايارد وبوتنا شرف بداية علم الآثار الآشوري وهو (هنري كريسيويك دولنسون) وكان باحثاً كلاسيكياً جيداً ورياضياً جيداً وكان موظفاً في شركة الهند الشرقية، وبعد أن حصل على معلومات جيدة في اللغة العربية والفارسية عين في دائرة المخابرات.

وفي عام ١٨٣٥ أرسل إلى بلاد العجم بصفة مستشار عسكري لأخي الشاه، وهناك كرس وقت فراغه في نسخ النقوش المهمة القديمة الموجودة على الصخور والتي كان أشهرها نقش كبير مكتوب بثلاث لغات عالياً فوق صخرة عالية في مكان يدعى: بيستون قرب كركيسي.

وفي عام ١٨٤٣ عين رولنسون قائماً بالأعمال في بغداد خلفاً للكولونيل تايلور وهذا قدم له الوقت لحل رموز نقوش بيستون، وسرعان ما استطاع حل رموز الحروف الهجائية الفارسية القديمة التي بدأ بها جروتيفند قبل أربعين عاماً.

وفي أوائل عام ١٨٤٥ نجد رولنسون يبدأ في مراسلات مع لايارد شجعتة عليها تلك المقالات التي كان لايارد قد كتبها في صحيفة مالطة تايمز **Malta Times** حول حفريات بوتنا وكذلك تلك الملاحظات حول النقوش التي كان

تركها مع الكولونيل تايلور ، ولقد عرف رولنسون من بعض النقوش التي كان لا يارد قد نسخها ولكنه طالب إعطاءه تفاصيل عنها من أي مثال كان من الممكن أن يساعده في التحاليل التي بدأ بها.

وفي أثناء ذلك فقد كان بوتنا وبعد أن تغلب على معارضة والي الموصل التي سببت له بعض التأخير قد بدأ في متابعة خبراته في خورساباد بعد أن أحرز نجاحات مرموقة ، ولذلك فقد أقفل مشاريع حفرياته في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٤ وقد جمع منتجات من أفضل اللقيات المحفوظة التي تشمل تماثيل هائلة من الثيران الحجرية ، كل هذه أرسلت إلى فرنسا عن طريق نهر دجلة بواسطة طوف ينقلها إلى إحدى السفن ومن ثم إلى فرنسا.

لقد أعطى نجاح بوتنا دفعة قوية لقضية الحفريات في منطقة البحر الأبيض المتوسط ولقد كان رولنسون يطمح بأن تبذل بعض المجهودات البريطانية في هذا السبيل ، ولذلك فقد قام هو بنفسه بحفريات على مقياس ضيق في جنوب العراق وقد كتب إلى لا يارد في تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ما يلي:

((سوف أكون في غاية السرور إذا استطاع السفير من خلاله جعل الحكومة البريطانية أن تقتنع ببذل بعض الاهتمام بالآثار القديمة في هذه البلاد ، وإنه ليؤمني غاية الألم أن أرى الفرنسيين يحتكرون هذا المجال ، وذلك لأن ثمرات أعمال بوتنا التي تم إحرازها ولا يزال يتقدم ليست من الأشياء التي سوف تمر في يوم أو يومين بل إنها ستؤلف المجد لتلك الأمة في العصور القادمة في المستقبل عندما تصبح الإمبراطورية العثمانية التي نحن لا نزال نجاهد لإبقائها سوف تصبح قضية من قضايا التاريخ.))

وفي هذا الوقت كان لا يارد قد أقنع السفير في دعمه مادياً لبدء فترة صغيرة من العمل في الحفريات في منطقة ما بين النهرين ، هناك مذكرة مكتوبة بخط كاندج نفسه والتاريخ مكتوب (ليس بخط كاندج) في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٥ كما يلي:

((إنني آمل أن ينتبه السيد لا يارد مشكوراً إلى النقاط الآتية:

١- أن يستمر في إعلامي عن عملياته وعن أي شيء ذي أهمية أو أثر قد يكتشفه.

٢- أن ينتبه غاية الانتباه للمسائل السياسية والدينية وبأكثر ما يمكن بشؤون المبشرين أو زعماء القبائل الوطنيين الذين تضرر لهم السلطات التركية العداة والغيرة.

٣- الحصول على رضا الباشاوات وموظفي السلطان الآخرين بكل معنى الكلمة.

٤- أن يتذكر دائماً طبيعة أعماله كرجل سائح مولى بالآثار القديمة والمناظر الجميلة، وبأنه يستحسن معرفة جميع العادات الغربية في آسيا.

٥- أن لا يبدأ بترك العمل والرجوع إلى الوطن دون الحصول على موافقتي المسبقة بعد تقديم تقرير عن تحرياته الأولى ومحاولاته الاستكشافية.

٦- في حالة إحرازه أي نجاح ينبغي عليه أن يقدم لي معلومات مبكرة ودقيقة عن طبيعة المواد المستكشفة وأحسن الطرق لاستخراجها الخ... مع التقديرات اللازمة للتكاليف بالإضافة إلى راتب قدره ٣٠٠ جنيه إسترليني سنوياً، وهذا راتب مستمر بالإضافة إلى ٣٠٠٠ قرش قد حصل عليها مقدماً لقاء مصاريف التجهيزات، فإن السيد لا يارد سوف يستلم من السيد هانسون مبلغاً آخر قدره ٣٠٠٠ قرش على حساب نفقات السفر، وقد زوّدته بالرسالة المرفقة إلى السيد رسّام في الموصل التي تضمن بالإضافة إلى توصيه بالتكرّم بالمساعدة، وتحتوي على اتّمان أو دين واجب علي بمبلغ ١٠،٠٠٠ ليرة تركية.

إنني أقدرّ أن يصل السيد لا يارد إلى الموصل حوالي نهاية شهر تشرين الأول حيث سوف يتمكن من إتمام دراسة مستفيضة حول أفضل الأمكنة ملائمة للاستكشاف خلال الشهرين التاليين، وإذا كان لديه من الأسباب التي تقتضي إضافة عشرة أيام أو أسبوعين على الموعد المحدد فله ذلك، وهو مخوّل أن يستعمل عقله وإدراكه في هذا الخصوص.)

ولقد ابتهج رولنسون عند سماعه خبر وصول لايارد إلى الموصل (٢٧ تشرين أول عام ١٨٥٤) وكان مستعداً لإسداء نصيحة.

وهكذا فقد كان لدى لايارد فكرة واضحة عما ينبغي عليه عمله، وبعد تقديم أوراق اعتماده إلى حاكم الموصل المستبد مع أنه لم يخبره عن أهدافه فقد تقدم فوراً لتنفيذ خطته، وكان من الضروري أن يتخذ جانب الحذر نظراً لأنه لم يملك أي تفويض رسمي من السلطات التركية لإجراء الحفريات، لهذا فقد تظاهر بأنه ذاهب لصيد الخنازير البرية وانطلق راكباً قارباً يدعى الكيليك جنوباً فوق نهر دجلة يرافقه صديقه هنري جيمس روس وهو تاجر بريطاني في الموصل، وحارس وعامل بناء مع بعض الأدوات اللازمة للعمل قد تم صنعها.

وقد كانت وجهته نمرود وهو تل متميز على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق السهل وهو يغطي مساحة قدرها حوالي ستين فداناً مع بقايا ناقورة واقعة على تله بارزة واقعة في الزاوية الشمالية الغربية، وهو يعرف كيف أنه وفي إحدى المناسبات عندما كان مسافراً إلى بغداد بواسطة كيليك في نيسان عام ١٨٤٠ عندها رأى تلة نمرود وهو سائر فوق نهر دجلة وقد قرر في ذلك الوقت أنه سوف يقوم باستكشافها في يوم من الأيام.

((رأيت خرائب نمرود للمرة الثانية، وأصبحت لدي فرصة أفضل لفحص هذه الخرائب، وكان قد حل المساء عند وصولنا إلى المنطقة، وقد عملت أمطار الربيع على إكساء التل بالعشب الأخضر.

وقد كانت المروج الخصبة الممتدة حوله مغطاة بالأزهار من مختلف الألوان، وفي وسط هذه الخضرة البهيجة كانت هناك قطع من القرميد والفخار والمرمر التي كان يظهر فوقها الآثار الإسفينية ذات الصفات المسمارية، ولقد امتدت خطوط من المرتفعات والتلال المتتالية التي لا تزال محتفظة بمظهر الجدران أو المتاريس وهي ممتدة من قاعدة الخرائب مشكلة ساحة رباعية الزوايا واسعة.))

وجد لايارد أن القرية القريبة من نمرود قد أصبحت مهجورة نتيجة لعمليات النهب التي كان يمارسها والي الموصل الوغد، وكان الشخص الوحيد الموجود في القرية هو أحد شيوخ القبائل الذي نهبت قبيلته وتفرقت، وقد لجأ إلى كوخ مهجور هناك وقد استخدمه لايارد لتنظيم جمع بعض العمال من المستوطنات المجاورة للمساعدة في عمليات الحفر.

بدأت الحفريات في يوم تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ولقد تلا ذلك النجاح الأكيد وبعد أسبوع استطاع لايارد أن يكتب لكاندج:

((بعد أن فتحت خندقاً صادفت حجرة طولها ٢٥ قدماً وعرضها ١٤ قدماً وهي مشكلة من ألواح من الرخام طولها ٨،٥ قدماً ويحتوي كل لوح على نقوش بالخط المسماري، وبعد عمل أربعة أيام أصبت بحمى خفيفة أجبرتني على الرجوع إلى الموصل، وبعد ذلك تركت الحفريات تحت حراسة (القوامس) وهو الحارس المخصص وأمرته أن ينظف الحجرة)).

لقد انتهز لايارد فرحة وجوده في الموصل للتفاهم مع الوالي وقد كتب إلى كاندج يقول: ((لقد زرت الباشا الذي كانوا قد أخبروه أنني قد اكتشفت كنزاً، ولكنني فسرت له طبيعة أبحاثي ولذلك لم يعارض ولقد تجنبت أن أحدثه في طلب الإذن للاستمرار في عملية الحفريات)).

لم تكن المشكلة هي الوالي فحسب، فقد علم لايارد أن القنصل الفرنسي (م. روتيه) وهو خليفة بوتنا كان يقوم بالتحريض على إيقاف الحفريات، وبالنظر إلى سعيه للحصول على الأولوية بإتمام ما يمكن إتمامه من العمل قبل أن تتخذ الخطوات لإيقافه عن العمل، لذلك أمد عماله بالقيام بحفر خنادق في ستة مرتفعات آشورية أخرى، والتي كان كاندج قد أمره بحفرها، ولذلك استمر هو نفسه في متابعة الأعمال في نمرود وهناك وفي نهاية شهر تشرين الثاني وجد ألواحاً تحمل سلسلة رائعة من النقوش النافرة التي تصور المعارك الحربية لآشور، وكان قد أخبر كاندج عن إحرازه النجاح عندما نجح الفرنسيون في ألعايبهم التي أنتجت تدخل الوالي لإيقاف الحفريات، ولكن كانت هذه نكسة مؤقتة حاول لايارد

الالتفاف عليها عن طريق صداقته الشخصية مع أحد الضباط المسؤولين عن قيادة الجنود المحليين، وقد كان يأمل أن يجد منحوتات كبيرة وسرعان ما تسنى له ذلك.

ففي ١٩ كانون الأول استطاع أن يرسل تقريراً إلى كانديج يخبره أنه قد وجد ثورين مجنحين عظيمين، وكذلك وحوشاً من الحجر الكلسي بارتفاع أربعة عشر قدماً، وقد كان بوتاً قد وجد تماثيل مشابهة قد أثارَت ضجة كبيرة في أوربة على الرغم من أن النقوش لم تكن قد وصلت إلى فرنسا بعد.

لقد استمر لايارد في مواجهة التدخلات من آن لآخر بشؤون حفرياته التي لم يحصل على إذن بالاستمرار في القيام بها بعد، ولكن إحدى مواهبه كانت مهاراته في التغلب على معارضيهِ، وهكذا استمر في الحفر وتسجيل وتفسير لقياته التي تشمل نقوشاً نافرة تحتوي على صور ثيران حجرية وأسود.

ولكنه لم يكتف بأعمال الحفر والقدرة في علم الآثار ولذلك فقد أشغل نفسه في محاولة حل رموز النقوش الآشورية، فقد كان رولنسون في بغداد يقوم بنفس العمل ومع أنه كان في ذلك الوقت متفوقاً عليه في هذا المضمار (فقد كان قد أكمل حل رموز حروف الهجاء الفارسية) لكنه كان يعامل آراء لايارد بالنسبة للنقوش الآشورية باحترام وكان يستعين بآرائه.

لقد كان كانديج متحمساً لما لمسهُ من نتائج أحرزها لايارد والاهتمام الشعبي الذي سوف تصادفه هذه النتائج، وحتى ذلك الوقت كانت تمويلاته للايارد شخصية أي: من جيبه الخاص ولكنه خطط أن يتصل بالوزير السير روبرت بيل عند رجوعه إلى بريطانيا بعد وقت قصير ويطلب منه مساهمة الدولة في مساعدة لايارد كما حدث بقضية بوتاً بالنسبة للحكومة الفرنسية.

وفي أثناء ذلك حاول كانديج جاهداً الحصول على رسالة من الصدر الأعظم التركي تقدم للايارد الصلاحية بإجراء الحفريات في محافظة الموصل وهذا نص الرسالة التي حصل عليها:

((هنالك وكما يعلم سعادتك في جوار الموصل كميات من الحجارة والآثار القديمة، ولقد أتى أحد الرجال الإنكليز إلى هذه المنطقة للتفتيش عن مثل هذه الحجارة، وقد وجد على ضفاف نهر دجلة في بعض الأمكنة غير المأهولة بالسكان بعض الحجارة القديمة التي تحتوي على صور ونقوش، ولقد طلب السفير البريطاني بأن لا تقام العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل الإنكليزي المذكور أعلاه عند أخذه تلك الحجارة التي ربما كانت مفيدة له بما فيها ما يمكن أن يكتشفه خلال تلك الحفريات، ولا مانع من إرساله تلك المكتشفات إلى إنكلترا)).

وكانت الصداقة الحميمة التي وجدت بين الحكومتين سهلت قبول تلك الطلبات، ولذلك لم يكن هناك من مانع لأخذ تلك اللقيات والحجارة الموجودة في تلك الأماكن المهجورة وهي حجارة قديمة تحتوي على صور ونقوش فقد طلب السفير البريطاني عدم وضع العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل، أو عندما يقوم بإجراء حفريات في أماكن غير مأهولة بالسكان حيث يمكن إجراء ذلك دون إحداث أي إزعاجات لأحد، أو في أخذ هذه الأشياء حسب رغبته بين تلك التي استطاع استكشافها.

لم يكن كاننج فحسب هو الذي تأثر بلقيات لا يارد فقد كانت المجتمعات الإنكليزية والأمريكية قد بدأت بالاهتمام العميق بأقوال التوراة وتاريخ الممالك العبرية القديمة، وكان هناك كثير من الناس في ذلك الزمن يشعرون بنفس شعور تلك السيدة التي كتب عنها الشاعر ماثيو رويور:

لقد حفظت هذه السيدة بعض أجزاء التوراة عن ظهر قلب

وقد ابتهجت بقراءة الأخبار التاريخية في ذلك الزمن

ويعلم الجميع أن الآشوريين قد أسروا القبائل العشرة الإسرائيلية وأن سنحاريب وعن طريق قائده رابشا قد حاصر مدينة أورشليم المقدسة وقد كانت هذه الأشياء قد حازت على اهتمام الرأي العام والثقافة البريطانية والأمريكية والوعي في تلك البلدان، وبالنسبة لتلك الأقلية من المثقفين المهتمين بالتاريخ القديم

فقد كانت اللقيات التي وجدها بوتنا ولايارد ذات أهمية بالنسبة للثقافة البشرية على العموم، ولكن معظم الزخم كان منصّباً على الحوادث التوراتية.

وبالإضافة للقياته الرئيسية التي تتمثل في تلك الألواح من النقوش النافرة والتمائيل العظيمة في نمرود فقد صادف لايارد نجاحاً في خطوط سيره في مكان آخر، فقد كتب يقول:

((لقد فتحت عدة خنادق في التل الكبير في (باشيخا) واكتشفت قطعاً من النقوش وقرميدياً منقوشاً وأواني فخارية، وفي كارامليس أزيح التراب عن منصة من أعمال القرميد، وقد ثبت الأصل الآشوري لهذه النقوش عن طريق قراءة النقوش المرسومة على الصخور التي احتوت على اسم ملك خورسباد.

وكان من الواضح أن لايارد أصبح قادراً على فهم الكتابة المسمارية بشكل استطاع أن يميز به اسم الملك والأسماء الأخرى في مواقع أخرى.

وحتى الآن فقد امتنع لايارد عن المقر في المرتفع الكبير في كيونيغيك عبر نهر دجلة من جهة الموصل نظراً لأنه مع افتقاره لإذن رسمي بالحفر كان يخشى التدخلات من قبل الشعب في الموصل.

ولكن بعد أن تسلح بكتاب الصدر الأعظم بدأ بالعمل بثقة وشعور بالإفلات من العقوبة، وكانت المعارضة الوحيدة التي صادفها هي معارضة القنصل الفرنسي الذي ادعى بأن له حقوق الأسبقية، ولكن لايارد لم يأبه لهذه المعارضة.

منذ أن رحل بوتار حل محله (روتيه) حصلت منافسات بين الإنكليز والفرنسيين، وقد وصلت هذه المنافسات إلى الصحافة، فقد كتب أحد أصدقاء لايارد رسالة له من القسطنطينية في (٨ حزيران عام ١٨٤٦ م) يقول:

قبل بضعة أشهر ظهر في جمعية **literary gazetc** من القسطنطينية رسالة تتحدث بلغة مثيرة عن أعمال روتيه الفرنسي، وبشكل استخفاف واضح عن أعمالك لذلك آمل أن أكون قادراً على كتابة شيء موثوق إلى رئيس التحرير بخصوص النتائج المقارنة لتلك الحفريات.

وكان هناك مظهر آخر لهذه المنافسات: وهو الأول الذي يعرض اللقيات الآشورية أمام الجمهور في أوربة، فقد أرسل (بوتا) عينات ولكنها تأخرت في بغداد، وعندما علم لايارد بذلك كتب إلى السفير كاندج في أوائل كانون الأول عام (١٨٤٥ م) ما يلي:

((أظن أن علينا أن نُدبر أمر إيصال منحوتاتنا إلى أوربا بشكل أسرع من الفرنسيين، وهذا أمر هام بالنسبة لِسْمَعَتِنَا)).

وقد دعم رولنسون هذه الفكرة فكتب إلى كاندج، وعرض استعمال باخرة تخص شركة الهند الشرقية الراسية عند مصب نهر دجلة وقد أرسل إلى لايارد مَوْضِحاً هذا الأمر:

((إذا استطعت أن تخلي محتويات حجرة أو حجرتين قبل بداية شهر آذار، وأن تجهز الأطواف، فإنني سوف أرسل الباخرة في ذلك الوقت مع تجهيزاتها. ومن الممكن أن تصل هذه إلى إنكلترا في أوائل الخريف حيث تعرض معروضاتنا في معرض له حق الأولوية ويكون نصراً لنا.

ولقد كتبت إلى سفيرنا شيئاً حول الموضوع وهو سير باخرتنا صعوداً إلى أعلى المناطق في النهر، مشيراً إلى الفوائد السياسية عندما يظهر علمنا صاعداً في أعلى النهر.))

ولكن المنحدرات النهرية منعت استمرار سير السفينة إلى أعلى النهر حتى نمرود، وفي تلك الحالة اضطرروا إلى نقل الآثار إلى بغداد بطريق الطوف.

ولكن الفرنسيين ربحوا قصب السبق أخيراً ضمن مدة ثلاثة أشهر، فقد عرضت لقيات بوتا في متحف اللوفر في شهر أيار عام (١٨٤٧).

بينما تأخرت الألواح الحجرية الإثنا عشر من النقوش النافرة التي وجدها لايارد والتي عُرضت في المتحف البريطاني في شهر آب (١٨٤٧).

إن العمل الذي قام به (روتيه) والذي استحق به الثناء والمديح في مجلة: **literary gazete** لم يكن سوى شيء زهيد بالنسبة لما فعله بوتنا في خورساباد مع أنه قد حصل على بعض النقوش النافرة على وجه صخرة في موقع آخر.

وقد زار لايارد خورساباد في أواسط صيف (١٨٤٦) وذكر ما يلي:

منذ رحيل السيد بوتنا فقد امتلأت الحجرات بالروميات بسبب تهدم الخنادق، وهكذا فقد تلفت جميع المنحوتات ولم يبق سوى القليل من هذا النصب المرصوف، ونضيف عبارة ممتعة وهي أن الجغرافيين العرب القدماء يصفون خورساباد بأنها تحتل موقعاً يدعى سراجون.

وهذا شاهد قديم يدل على موثوقية التقاليد القديمة الشفوية التي تذكر أن سراجون ما هي إلا شكل من أشكال كتابة اسم سرجون الذي كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الاسم.

لقد قضى لايارد شهراً أو أكثر اعتباراً من نهاية آب (١٨٤٦) وهو في حالة سفر في الجبال إلى الشمال من الموصل، وعندما رجع إلى الموصل وجد أن كاندج بعد رجوعه من إنكلترا قد حصل على دعم رسمي للحفريات، وقد كتب كاندج يقول:

سوف يتعهد المتحف البريطاني قضية الحفريات في نمرود بدلاً عني، وقد سمحت الخزينة بصرف مبلغ (٢٠٠٠) جنيه إسترليني في هذا السبيل.

إنك أنت الموكل بالعمل وسوف تأخذ (٥٠٠) جنيه لك فضلاً عن (١٠٠) جنيه البيتية.

أما المبلغ الذي أنفقته أنا فسوف يسدونه لي، وسوف يخصص مبلغ يتراوح ما بين (١٠٠٠-١١٠٠) جنيه لمتابعة إتمام العمل بما فيه أجرة شحن المنحوتات التي سوف تجدها، وعليك أن تنهي كل ما ذكر في نهاية حزيران القادم.

ولكن لايارد اعتبر أن هذه الإعانة المالية غير كافية، وفيها شيء من الشح

والبخل:

((إن هذه المنحة قليلة، وأنا أشك أن باستطاعتي إتمام التوقعات التي توقعوها، وإن المبلغ الذي منح لبوتا لقاء حضرياته في خورساباد لوحدها قد زاد بشكل كبير على جميع المنح التي وجهها المتحف البريطاني التي كانت تشمل المصاريف الخاصة، ومصاريف النقل وكثيراً من النفقات التي لا بد منها في الشرق.

ولكن قد قررت أن أقبل هذا التكليف وهذه المسؤولية، وقررت أن أقتصد بالقدر الذي أستطيعه بحيث تمتلك الأمة من المواد الأثرية الآشورية ما هو أرقى من ضالة المبلغ الذي خُصص لهذا الموضوع)).

ولقد استمر لا يارد في تلخيص صعوباته فقال:

((لقد أصيبت كثير من المنحوتات بالتلف وهذه حالة يجب إصلاحها، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي متوفراً بعد، وإن التسجيل لا يمكن إنجازه إلا عن طريق الرسم)).

ثم يقول لا يارد: ولم يكن هناك أي دلالة بأنهم سوف يرسلون رساماً لمساعدتي، ولذلك فإن عليّ أن أراقب الحفريات عن كثب، وأن أرسم جميع النقوش النافرة بنفسي والتي تم اكتشافها.

وأن أنسخ وأقارن النقوش التي لا تعد ولا تحصى، وأن أصنع قوالب عنها، أو أن أشرف على أعمال تحريات وتعليب المنحوتات)).

وكان عليه أيضاً أن يبني بيتاً لنفسه وبيوتاً للعمال، وأن ينظم الدفاع ضد غزوات القبائل العربية، وفوق ذلك فقد كان البدو يفضلون أن يضعوا بين يديه قضايا خصوماتهم الخاصة وخلافاتهم العائلية ليقرر ما يجب عليه أن يحكم فيها، وفي إحدى الحالات كان عليه أن يجد زوجاً لفتاة قد تقدمت إليه طلباً لحمايته.

هذا وقد استأنف عمليات الحفر على مقياس واسع في نمرود في شهر تشرين الثاني عام ١٨٤٦ وذلك عندما اشتملت لقياته على ألواح من النقش النافر ذات الأهمية وتستحق الذكر، وهو يقدم لنا وصفاً حياً لمجموعات مختلفة.

مثلاً: تحتوي السلاسل السفلية من الألواح ذات النقوش النافرة على ثلاثة مواضيع: حصار قلعة، والملك وهو يستقبل الأسرى، والملك مع جيشه وهو يعبر النهر، ونرى المحاربين وقد جلبوا منجنيقاً للقصف (وهو موجود في برج متحرك مصنوع من الأغصان المجدولة من القصب) وترى أحجاراً كثيرة قد تم إطلاقها من المنجنيق وهي تتساقط على القسم الخارجي من السور، ويرى أحد الجنود الذين قد حوصروا وقد نجح في إمساك المنجنيق بسلسلة وهو يحاول رفعه وتحريكه من مكانه.

ويرى جندي آخر وهو يلقي النار من الأعلى إلى آلات الحصار (وترى آثار الدهان الأحمر لا تزال عالقة على المنحوتات) ويرى الجيش المحاصر في الأسفل وهو يحاول إطفاء النار وذلك بصب الماء عليها من صنبورين موجودين في البرج المتحرك، ويرى شخصان يلبسان كامل الدروع والأسلحة وهما يحفران تحت الأسوار بواسطة أدوات تشبه الرماح المثلمة، بينما نلاحظ أن اثنين آخرين قد وجدوا ممراً سرياً يوصل إلى داخل القلعة.

وبالإضافة إلى النقوش النافرة وجد لايارد دروعاً من الحديد والنحاس وخوذاً وأواني من الرخام الشفاف ومن الزجاج، وكذلك ثوراً مجنحاً هائلاً وسله سوداء من الرخام علوها ستة أقدام ونصف، وإن أفضل وصف لهذه الأشياء ذكره لايارد بنفسه:

((لقد كانت هذه منحوتة من جوانبها الأربعة، وكان هناك أربعة وعشرون لوحاً من الألواح المنقوشة النافرة وفوقها وتحتها وفي ما بين جوانبها كتبت نقوش تحتوي على ٢١٠ أسطر وقد كانت كلها محفوظة بشكل جيد، ولم يكن هناك أي حرف من حروف النقش ناقصاً أو مفقوداً، وكانت صور الأشخاص واضحة ومحددة كما لو أنها قد نحتت قبل أيام، وترى صورة الملك مرتين يتبعه رجاله، وأسيراً قد ارتمى تحت قدميه، ويرى الوزير ومعه بعض الخصيان وهم يقدمون رجالاً يقودون حيوانات مختلفة ويحملون مزهريات وأشياء أخرى تتمثل بالجزية...))

والحيوانات المصورة هي الفيل والكركدن والجمل ذو السنامين والثور البري، والأسد والوعل وأنواع مختلفة من القرود، وبين الأشياء التي يحملها الرجال كجزية كانت أنياب الفيل، والشالات والمزهريات المصنوعة من المعادن الثمينة، والفواكه والقضبان من المعدن أو حُزم من الأخشاب النادرة.))

تحتوي نمرود على عدد من القصور تعود إلى فترات مختلفة خلال القرن الثامن والقرن التاسع، وكانت معظم اللقيات المذكورة من القصر الشمالي الغربي، ولكن لا يارد كان يحضر في أنقاض قصر في الزاوية الجنوبية الغربية من التل وهنا وجد آثاراً من نوع مشابه ولكن كانت هناك فروق سجلها بعناية وقد وصفها بأنها تعود إلى تاريخ مختلف، وإن أحد العوامل التي أعطت لعمل لا يارد أهمية خاصة عند اكتشاف بلاد آشور من جديد كانت خبرته في المجالات الفنية، وربما كان ذلك نتيجة لتربيته الأولى في فلورنسة الأمر الذي مكنه أن يرى بسرعة مالا يستطيع أن يراه أحد من تتابع قطع من فنون النحت تتابعاً زمنياً.

في هذه الأيام ربما اعتبرنا عملاً غير لائق أن نسأل عالم آثار عما وجدته، فإنه من المحتمل أن يجيبنا بتكلف أنه يفتش عن أجوبة لعدة مشاكل وهو لا يبحث عن أجوبة عن الأشياء، ولكن كان للا يارد موقف صلب وقد كوفئ بذلك النجاح الحقيقي الكبير وذلك بأنه استطاع أن يرسل حمولة كبيرة أخرى من اللقيات إلى الأماكن الموجهة إليها في المتحف البريطاني وهنا نراه يقول:

((وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٤٦ شعرت بالرضا والامتنان لرؤية طوف وهو يحمل ثلاثاً وعشرين محفظة ومن ضمنها المسلة وهي عائمة فوق النهر، وقد راقبتهم حتى غابوا عن الأنظار، وبعدها أسرعرت راكضاً إلى الموصل لأحتفل بعيد الميلاد مع حفنة قليلة من الأوربيين الذين جمعهم الواجب أو شؤون العمل في هذه البقعة النائية من بقاع العالم.))

وبعد عطلة الميلاد تابع لا يارد عمله في الحفريات في نمرود وبصورة رئيسية في القصر الشمالي الغربي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٤٧، وكانت إحدى لقياته الممتعة حجرة مملوءة بالعاج المحفور، وكانت هناك أيضاً غرف فيها رسوم

جدارية باللون الأحمر والأزرق والأسود والأبيض، ولكنه ولسوء الحظ لم يستطع أن يحفظها من التلف.

كان هناك مكتشفات مهمة أخرى بحيث لا مجال لذكرها هنا، ولكن لا يارد قد ذكرها في مذكراته وهنا يذكر خلاصة لأعماله في نمرود:

((لم يكن بوسعي القيام بأعمال الاستكشاف كما يجب، ولكن ومع وجود ذلك المبلغ الضئيل من المال تحت تصرفي لم استطع أن أمارس أعمال الأبحاث إلى المدى الذي كنت أتوقعه وأرغب به، ولهذا فقد تركت مرتفع نمرود لمن سيأتي بعدي من المستكشفين الذين سوف يعملون على استكشاف خرائب آشور)).

وكما سوف نرى فإن هذا التحدي المطروح لم يتطرق إليه أحد إلا بعد قرن من الزمان وبنجاح كبير على يد ب. د مالوان (السيرماكس) فيما بعد وهو زوج أجاثا كريستي.

وعندما نشر لا يارد نتائج أبحاثه فقد وقع في خطأ وهو أنه طابق اسم نمرود مع نينوى التي تمثل بالحقيقة بكيونيوجيك والنبى يونس ولم يكن الخطأ سببه لا يارد الذي ترك السؤال مفتوحاً مدة طويلة بل كان السبب هو رولنسون الذي كتب إلى لا يارد بتاريخ ١٠ كانون الأول عام ١٨٤٥ ما يلي:

((لقد فحصت مؤخراً بعناية تامة القضية الجغرافية والتاريخية المختصة بنمرود وأخير توصلت إلى استنتاج قاطع وهي أن نمرود هي نينوى التي هدمها (سارد أنابا لوس) أما الخرائب الموجودة في النبي يونس فهي خرائب نينوى الثانية وهي عاصمة الأسرة الآشورية الأخيرة)).

لم يبتعد رولنسون عن الصواب، كما من الممكن أن نتصور فإذا استبدلنا كلمة عاصمة آشور بكلمة نينوى فإن ما قاله رولنسون يبدو صحيحاً، إذ إن فكرته بأن نمرود كانت عاصمة أقدم وقد حل محلها عاصمة كانت النبي يونس جزءاً منها، فهذا كلام صحيح ودقيق مع أن اسم نينوى يخص العاصمة المتأخرة.

لم يكتفِ لايارد بعمليات الحفر في نمرود وكيونيبيك، فقد سمع قصصاً من الزوار العرب عن موقع يدعى قلعة شيرجات (باللغة العربية قلعة الأرض) وهي واقعة على نهر دجلة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو يقول:

((كان هناك أحد العرب من قبيلة شمر (وهي قبيلة رئيسية في الجزيرة العربية) كان يقضي من وقت لآخر ليلة بين عمالي ويسليهم برواية القصص حول الأصنام والأشكال المنحوتة التي تمثل المردة التي كانت سبباً في دخول الخوف والرهبنة في قلوب القبائل المتجولة الذين ينصبون خيامهم قرب ذلك المكان)).

ويقول: ((إن المنظر كان خطراً للغاية لكونه كان لقاء كل الجماعات التي تعمل في السلب والنهب، ولكن أصبحت حركات القبائل الآن تمثل ظروفاً يستطيع خلالها أن يذهب حياً منها بأمان واطمئنان ولكنه وجدها بقعة موحشة)).

ويقول لايارد: لقد توجهنا نحو الخرائب بعد الظهر وركبنا بمحاذاة الغابة فوجدنا الأرانب البرية والذئاب والثعالب وبنات آوى والخنازير البرية وكانت تعبر الطرق أمامنا باستمرار، وكانت طرائد الصيد متوفرة ومن جميع الأنواع وتوجد الأسود أحياناً قرب قلعة شيرجات، وحالما توجهت إلى بغداد قبل عام سمعت زئير أسد ليس بعيداً عن المنطقة.

ولقد أرسل لايارد جماعة من العمال قبل ذهابه ببضعة أيام لكي يبدؤوا بالحفريات فوجدوا تمثالاً مقطوع الرأس مصنوعاً من البازلت الأسود، وقد ساعدت لايارد إجادته وتمكنه من معرفة وفهم الحروف المسمارية تمكنه فوراً أن يحدد هوية هذا التمثال وأنه يعود إلى لقيات نمرود.

وكانت قطعة الحجر التي توضع عليها التمثال مغطاة من ثلاثة جوانب بالنقوش المسمارية، وكان السطر الأول يحتوي على اسم وألقاب الملك ولكن بشكل غير واضح، ولكن وجدت بعد قراءة كلمة أو كلمتين استطعت أن أستعيد اسماً مطابقاً للاسم المكتوب على التمثال الثور العظيم الواقع في منتصف قلعة نمرود، وعندما توجهت عيناى إلى الأسفل نحو العمود الأول من النقوش وجدت اسمي والده (وهو باني أقدم قصر في نمرود) واسم جدّه.

وهذا أثبت أن القراءة كانت صحيحة ، وبعد ذلك جلب أحد البدو قطعة من القرميد تحتوي على خرافة صغيرة فيها ثلاثة أسماء كاملة ، وهكذا استطعت أن أعين الفترة الزمنية لتلك الخرائب المستكشفة حديثاً.

ونحن نعلم الآن أن الملك الذي دعاه الجد لم يكن سوى توكولتي نينوترا الأول (٨٩٠-٨٨٤) ق.م ، وأما باني أقدم قصر في نمرود فهو آشور ناصر بعل الثاني (٨٥٨-٨٢٤) ق.م ، وإن التمثال المصنوع من البازلت الأسود كان ابنه سلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤) وهو التمثال الجالس الذي يعطي جمالاً لصالة نمرود المركزية في المتحف البريطاني في لندن.

لقد كانت الحالة الأمنية في قلعة شيرجات سيئة مما حرم لايارد من فرحة استمرار العمل هناك ما عدا نظرة خاطفة ، وكان على عمليات الحفر أن تنتظر قدوم بعثة ألمانية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى ، هذا وقد عاد لايارد إلى نمرود لإكمال حفرياتة الأساسية ، ولكي يرتب قضية نقل الثور المجنح العظيم والأسد وقد فعل ذلك بواسطة عجلات وعربة صنعت خصيصاً لهذا الغرض ، وقد جرّها حوالي ثلاثمائة رجل كانت تشجعهم الموسيقى والنساء المنشدات مسافة ميل تقريباً من التلة في نمرود إلى ضفة نهر دجلة ، وهناك تركت هذه الآثار لتنتظر ارتفاع ماء النهر الذي سوف يساعد في زحزحة التمثال الكبير وإدخاله إلى الطوف (الكيليك).

وبمناسبة حدوث موجة من القحط انتقل سكان جميع القرى الواقعة حول نمرود إلى التلال حيث كانوا يأملون في زراعة بعض الحبوب ، وكذلك فقد نزع البدو الرعاة وقبائلهم شمالاً ، وهكذا لم يكن هناك أي عربي في المنطقة سوى عمال لايارد ، وحالما حصل ارتفاع في منسوب النهر أصبح من السهل إدخال المنحوتات إلى القارب ولكن الرجال من العمال ظنوا أن لايارد بحاجة إليهم وإلى مساعدتهم فقد قاموا بعمل إضراب طلباً لرفع الأجور ، ولكن لايارد لم يكن بالرجل الجبان الذي من الممكن إرهابه ، ولذلك سمح لهم بالذهاب فذهبوا ولكن بعض العائلات رفضوا مغادرته.

ولكن كان هناك قبيلة من البدو الرحل كانت تربطها علاقة الصداقة مع لايارد فأرسل لهم لايارد رسالة مع شخص على ظهر حصان، فأرسلوا له رجلاً لا يكفون لإتمام العمل، وعندها رجع المضربون وعرضوا استئناف العمل بأي شروط، ولكن لايارد استطاع أن يتم العمل بدونهم.

وبعد أن تم نقل المنحوتات عمد لايارد إلى دفن المنحوتات الباقية بناء على تعليمات وردت من أمانة المتحف البريطاني، وقد ترك نمرود في منتصف شهر أيار عام ١٨٤٧.

ونظراً لوجود بعض المال الذي بقي من المنحة التي قدمت له قرر أن يستعمل هذا المال في عملية حفر في كيونيجيك، وقد كان يقصد بذلك غرس النفوذ البريطاني هناك بقصد إحراج القنصل الفرنسي الجديد وهو م. غولويس الذي كان قد قدم طالباً السماح له بالحفر هناك، وكان لايارد صريحاً بالنسبة لأهدافه عندما كتب إلى كاندج بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٨٤٧ ما يلي:

((لقد قمت بعمليات الحفر في كيونيجيك خلال الأسبوعين الماضيين وقد نجحت العملية إلى حد ما، ولقد كشفت عن ثمانية حجرات، هذا وإن استكشاف هذا البناء والمدى الذي توصلت إليه الحفريات ربما تؤكد وتدعم ادعاءنا بأحقية العمل في المستقبل في هذا التل فيما لو رغب أمناء المتحف البريطاني باستمرار البحوث في هذه البلاد)).

لقد كان المشكل العملي بالنسبة لأعمال الحفر في كيونيجيك والمشكل الذي جمد نشاط بوتان في محاولاته هناك عمق التربة الكبير فوق مستوى الأرض في بلاد آشور، ولقد كان لايارد عالماً بهذا الأمر، فقد حفر خنادق على عمق عشرين قدماً لكي يصل إلى الأرض التي بني فوقها القرميد المشوي بالشمس، وهنا أيضاً وجد ألواحاً من النقوش النافرة وثيراناً هائلة مجنحة.

هذا وإن معرفته بالرموز المسمارية جعلته يعلم أن الملك الذي كانت هذه الآثار تنتمي إليه كان هو ابن الملك الذي بنى خورساباد، وكما نعرف الآن أن قصر كيونيجيك الذي يمثل نينوى قد بناه سنحاريب الذي كان والده سرجون باني

قلعة سرجون (خورساباد) وقد سجل هذا الملك أيضاً عدة ألواح مستطيلة مصنوعة من القرميد غير المشوي مع وجود بعض النقوش المسمارية فوق جوانبه.

وكانت هذه أول الدلائل لوجود تلك الثروة الهائلة من الألواح المسمارية في كويونيجيك التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمعرفة تاريخ منطقة ما بين النهرين.

لقد نال لايارد مساعدات لا بأس بها في كويونيجيك من هنري جيمس روس، وحالما كان لايارد يقوم بالاستعداد لمغادرة منطقة ما بين النهرين كلف المتحف البريطاني (روس) بالاستمرار وعلى مقياس ضيق بالحفريات في كويونيجيك وكان الغرض الأساسي الاحتفاظ بحق بريطانيا في هذا الموقع، وقد غادر لايارد المنطقة متوجهاً إلى القسطنطينية في شهر حزيران عام ١٨٤٧ ووصل إلى إنكلترا في وقت عيد الميلاد وذلك بعد أن عرض رسوم المنحوتات الآشورية على رجال علم الآثار في إيطاليا وقضى بعض الوقت في مناقشة اللقيات مع (بوتا) وزملائه في باريس.

ولكن أعماله أصبحت معروفة جيداً في إنكلترا، وفي أوائل شهر تشرين الأول عام ١٨٤٦ عقد اجتماعاً للمؤسسة الملكية للعمارة برئاسة الإبريل دي جري، وذلك لأجل بحث ما وصفه لايارد لأحد البنى الأثرية في (تل هافور) في منطقة ما بين النهرين، وكذلك لمناقشة بعض الآثار المكتشفة حديثاً في نمرود (وهو موقع نينوى) وقد كان أولى لقيات لايارد قد عرضت في المتحف البريطاني منذ شهر آب عام ١٨٤٧ وقد أثار ذلك العرض ضجةً لا بأس بها في الرأي العام، وقد كان أصدقاؤه حريصين أن ينال الشرف الذي يستحقه.

فقد كتب كاندج (ينبغي عليك أن تقدر معظم الآثار الآشورية وأن تتنصف هذه الآثار وأظهر أفضالك واجعل الجمهور يفهم أنهم قد حصلوا على جائزة كبرى).

وهكذا بدأت آيات الشرف تتوجه نحوه، إذ إنه وبعد وقت قصير من عودته إلى بريطانيا انتخب عضواً في المجمع العلمي، وفي شهر تموز عام ١٧٤٨ منح درجة الدكتوراه D.C.L من جامعة أكسفورد.

ولقد أقتنع اهتمام الرأي العام بالآثار الآشورية أمانة المتحف البريطاني باستئناف عمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين ومن المفضل أن تكون تلك العمليات بإشراف لا يارد، ولكنه فضل رفض هذا الطلب لسببين وكان أحدهما مادياً نظراً لأن سُلّم الأموال التي يخصصها المتحف البريطاني لمثل هذه الأعمال كان ضئيلاً.

أما السبب الآخر: وهو أنه رغم نجاحه المرموق في عمليات الآثار إلا أن ذلك كان مجرد هواية بالنسبة له، فقد كان هدفه الحقيقي هو العمل في الحقل الدبلوماسي، فقد أحرز درجة راقية في هذا السبيل وذلك بتعيينه ملحقاً ثقافياً للسفير سائر آنغور كاندج في القسطنطينية (ولكن دون راتب) وقد ترك بريطانيا للحاق بذلك المنصب في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٨ وقال كما أخبر صديقه: إنه سوف يلتحق بوظيفة ملحق ثقافي دون أجر وهو لا يملك ستة بنسات.

وفي أثناء ذلك كان مستعداً لنشر كتبه ونتائج أعماله، فأصدر مجلداً يحتوي رسوم الأنصاب الذي ظهر في عام ١٨٤٩ تحت عنوان ((أنصاب نينوى)) وبعد ذلك صدرت له إصدارات جديدة عام ١٨٥١ بعنوان (مخطوطات بالرموز المسمارية من الأنصاب الآشورية) وقد وضع فيها لوحات من نسخ من النقوش المسمارية كانت في غاية الدقة بحيث إنها لا تزال ذات قيمة للباحثين بعد قرن وربع من الزمن من صدورها.

ولكن رائعته وأفضل مؤلفاته كانت كتاب (نينوى وآثارها) وكان في مجلدين وهو يعطي قصة حية ليس بالنسبة لحفرياته بصورة عامة في نمرود (التي وردت خطأ باسم نينوى) فحسب، بل أيضاً بالنسبة لرحلاته وقد نشر هذا الكتاب في بداية عام ١٨٤٩ ولم يكن هذا الكتاب نجاحاً كاسحاً فحسب، بل كان

ضجّة قوية وقد أصيب لايارد بالدهشة بقدر ما أصيب بالسرور وقد كتب من القسطنطينية في ٥ شباط مخاطباً أحد الأصدقاء:

((لقد غمرني العجب من المديح الذي لاحظته بالنسبة إلى كتابي المتواضع، وأنا أشك أن أحداً يمزح معي، وإن (موري) الناشر يفكر بإصدار طبعة ثانية ومع ذلك كانت تقديرات الناشر غير كاملة)).

ففي شهر أيار صدرت الطبعة الثالثة، وفي تموز ظهرت الطبعة الرابعة وقد كتب أيديون لاوريس إلى لايارد من مكتب الخارجية في ١٩ شباط يقول:

((أهنتك لأنك أصدرت كتاب الموسم، الحقيقة لم ينل أي كتاب ما ناله كتابك من التقدير وحيث ما أذهب أسمع السؤال:

ما هو رأيك في كتاب لايارد؟

وليس هناك أي شخص يسأل: هل قرأت هذا الكتاب؟

لأن ذلك أمر مفروغ منه.

فقد زار كل شخص ذي أهمية ابتداء من الأمير ألبرت الآثار الآشورية في المتحف البريطاني.

وقد كتب صامويل بيرتش من المتحف البريطاني إلى لايارد في ٢٨ آذار ما يلي:

لقد جنّ العالم شوقاً لرؤية الذهب والجميع يصيحون: الثيران، الثيران ولقد أتعبتني تلك الجماهير من الناس القادمين من صفوف اللوردات والسيدات الذين أتوا لرؤية نمرود.

ولكن حدثت بعض المنغصات من جراء هذا المديح، فقد كتب له رولنسون من بغداد بتاريخ ١٧ كانون الثاني يقول:

ما رأيك بتلك الهجومات الموجهة إليك من قبل المجمع العلمي الذين ينعتونك بكونك أحد برابرة القرن التاسع عشر؟

هل تعتقد أن بونومي يفكر أن نمرود هي أثينا؟

أما بونومي فكان يكبر لا يارد بعشرين عاماً وكان من الثقات في النحت وقد
حاز على شهرة عندما رسم الأنصاب المصرية.

وقد تابع هجومه على لا يارد بنشره كتاباً ناجحاً عنوانه (نينوى وقصورها) مع
عنوان إضافي (اكتشافات بوتنا ولا يارد بالنسبة لشرح الكتاب المقدس) وكان هذا
تكييفاً لكتاب لا يارد نفسه وهو (نينوى وآثارها) ولكن بشكل أقل أناقة وروعة.

وفي القسطنطينية كان لا يارد يشك بالحكمة في اشتراكه مرة ثانية في
الحفريات في منطقة ما بين النهرين، ولكنه سمع الآن أن الحكومة البريطانية قد
أعطت التعليمات لكاندج بالاستفادة من خدمات لا يارد لذلك الغرض (أي:
بالحفريات) وبعد وقت قصير علم أنه سوف يوظف كملحق ثقافي ولكن بأجر
قدره (٢٥٠) جنيهاً إسترلينياً سنوياً كاعتراف من الحكومة بأهمية خدماته
بالنسبة للتاريخ القديم.

وقد هنأه كاندج قائلاً أتمنى لك السرور لأنك قد أصبحت ملحقاً ثقافياً
براتب، وإن هذه الوظيفة هي بمثابة كعكة رقيقة الحجم لتنين المجد العنيف
الذي حظيت به، ولكنها ليست شيئاً على كل حال.

ولقد صوت البرلمان على إعطاء منحة قدرها ١٥٠٠ جنيه إسترليني لمدة سنتين
مكافأة على القيام بعمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين، ولقد تم تأمين هيئة
صغيرة تتألف من أحد الفنانين وطبيب وهرمز رسام وهو الأخ الأصغر لنائب
القنصل البريطاني في الموصل، ولقد أرسل المتحف البريطاني مذكرة إلى لا يارد
مؤرخة ب ١٤ تموز تلخص شروط الحفريات:

إن الحملة التي سوف يصبح السيد لا يارد مسؤولاً عنها قد شكلت للحصول
على أوسع المعلومات وأدقها بخصوص الآثار القديمة في منطقة ما بين النهرين التي
من المحتمل أن تستطيع الموارد المالية للأمانة العامة للمتحف تقديمه في هذا الصدد.
وكانت هذه المعلومات التي سوف تقدم للمتحف البريطاني سوف تكون
بشكل عينات مختارة من الآثار المنحوتة والمنقوشة، وجزء منها بشكل مخططات

الأبنية المكتشفة ورسوم النقوش والمنحوتات ونسخ عنها مع أوصاف مفصلة عن الأشياء والمواد التي من الممكن أن تظهر أثناء الحفريات.

ولا تعتقد الأمانة العامة أنه من المناسب تقييد حركة السيد لايارد بتحديد المواضع التي سوف تشملها أبحاثه، إذ إن خبرته الواسعة بأحوال تلك البلاد ومواقعها الأثرية سوف تكون أفضل مرشد.

ولقد اعتبر لايارد أن المبالغ التي وضعت تحت تصرفه كانت ضئيلة وغير كافية، لذلك كتب إلى أحد أصدقائه يقول:

((لا يمكنني القول إن أمناء المتحف البريطاني قد سلكوا سلوكاً مناسباً وتصرفوا بسخاء، ومن جهة أخرى أظن أن الرأي العام قد عاملني معاملة سخية وممتازة مما يعوضني عن معاملة الأمناء.

وفي السنة التالية كان أكثر شكوى من السنة الماضية وهو يقول:

((إن أسوأ ما في الأمر هو أن الأموال المخصصة مقننة، ومن المنتظر أن أقنن وقتي أيضاً، فلو منحوني المبلغ مباشرة فإني أستطيع أن أنهى العمل في مدة سنتين. أما في الظروف الحالية من تقثير الأموال فإني لا أستطيع إنهاء نفس العمل في مدة خمس سنوات أو ست سنوات، أما الرسام الذي أرسلوه لي فهو غير لائق لعمله وليس بإمكانه أن يخدم المصلحة بجداره وعدل)).

لقد غادر لايارد القسطنطينية متوجهاً إلى الموصل في أواخر شهر آب عام ١٨٤٩، ولقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها في حملته الثانية أوسع مدى من حملته الأولى، فقد امتدت إلى بابل جنوباً حتى نيبور مع أن نجاحه كان محدوداً بسبب الأحوال غير المستقرة هناك.

وأما في آشور فقد كان عمله موزعاً ما بين كوينيجيك ونمرود مع قضاء بعض الوقت في قلعة شيرجات ومواقع أخرى.

وكانت طريقته في الحفر هي الاستمرار حتى الوصول إلى أرض الحجرات العائدة إلى القصور الآشورية وبعدها يعمل حول الجدران حتى يجد أمثلة مناسبة

من اللقيات مثل الألواح من النقوش النافرة التي كانت متوفرة في القصور الآشورية.

ولكن في أثناء تنظيف أراضي الغرف فقد وجد عدة لقيات ممتعة اشتملت نمرود على مجموعة مهمة من المواد البرونزية كالأجراس والأسلحة والمراجل والمزهريات وحتى العروش الملكية.

وكذلك اكتشف تمثالاً بالحجم الكامل للملك آشور ناصر بعل في حالة جيدة تقريباً.

أما في كيونيغيك فقد اكتشف مجموعة ضخمة من النقوش النافرة وبعضاً من تماثيل الشيران المجنحة ولكن أهم لقية وجدها في الموقع الأخير كانت أول مجموعة كبيرة من الكتابة المسمارية من مكتبة آشور ناصر بعل والتي إذا حلت رموزها فهي سوف تقدم المفتاح للوصول إلى الأدب والدين والطب وطرق المعيشة والتفكير بالنسبة للناس الذين سكنوا منطقة ما بين النهرين القديمة.

لقد دامت أعمال الحفريات أثناء حملته الثانية ابتداءً من تشرين الأول عام ١٨٤٩ حتى نيسان عام ١٨٥١ ولكن ساءت صحة لايرد وأصابه الاكتئاب لاسيما بالنسبة إلى المؤن والأموال التي خصصها المتحف البريطاني وهو يقول:

((لقد وصلت البعثة إلى حالة ميؤوس منها، ولم يعد لدي أموال مناسبة ولا عون أو مساعدة مناسبة ولنسوف لا تصل الأمور في النهاية إلى المستوى الذي كنت أتوقعه)).

ووصلت الأمور إلى درجة أن قرر أن يترك الأعمال الأثرية إلى الأبد، وقد أخبر أحد أصدقائه قائلاً:

((أظن أنه حان الوقت لكي أترك أعمال الحضر وأن أعود للاهتمام بواجباتي في هذه الحياة وأن أسعى لتكوين وضع دائم لنفسي)).

ولقد أصر على هذا القرار رغم الجهود التي بذلت لإقناعه للقيام بحملة ثالثة، وعند رجوعه إلى إنكلترا في شهر تموز كان قد قرر أن ينتهي وبشكل

نهائي من ميدان علم الآثار وهكذا فعل، ولكن أنجز لا يارد التزاماته من خلال إصدار كتابين آخرين وهي سلسلة ثانية من كتاب نصب نينوى والثاني قصة بعثته الثانية تحت عنوان: (اكتشاف بين أطلال نينوى وبابل) ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً يضاهاى نجاح كتاب (نينوى وآثارها).

وفي أثناء ذلك استمر رولنسون بالمراسلة مع لا يارد حول شؤون التعاقب الزمني حول قراءة المنحوتات المسمارية، وسوف يستغرق معنا وقتاً طويلاً إذا بحثنا هنا عن تاريخ الخطوات والمراحل التي مرَّ بها تقدّم رولنسون.

ولقد رأينا أنه قد أكمل حل الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٤٩ أعرب لا يارد عن رضاه على مقدرة رولنسون قراءة الشكل الآشوري من الرموز المسمارية، فقد كتب لأحد أصدقائه في إنكلترا.

لقد كان رولنسون هنا مؤخراً وقضى يومين أو ثلاثة أيام معي، ولقد سلمته رسالة إلى الضيوف، وهذا التصرف لم أكن لأقدم عليه لولا معرفتي أن رولنسون أسد حقيقي فهو صديق من الطراز الأول ومن المؤكد أنه الأول في مجاله، ولا شك بأنه سوف يدهش الناس في إنكلترا باكتشافاته في مجال الكتابة المسمارية، ولا شك أنه الآن أصبح ملماً بجميع القضايا المبدئية بالنسبة لكل رموز النقوش، وأن الكتاب الذي ينوي نشره وهو في إنكلترا سيكون ترجمة تقريبية إن لم تكن كاملة لتلك النقوش الموجودة على المسلة ومعظم السجلات المهمة في آشور والتي اكتشفت حتى الآن.

في أثناء حملته الثانية أقام لا يارد مساعداً وهو هرمرز رسام وهو أحد مواطني الموصل من المسيحيين وهو الأخ الأصغر للرجل الذي خدم مساعداً للقنصل البريطاني، وكان لا يارد قد أرسله إلى كلية أوريال في أكسفورد لإتمام تعليمه، وعندما رفض لا يارد القيام بالحملة لثالث مرة وهي التي خططت لها الأمانة العامة

للمتحف البريطاني، فقد اقترح تعيين رسام في هذه المهمة، ولقد حدث عندما أُرسِل رسَّام في عام ١٨٥٢ لمزاولة أعمال الحفريات تحت إشراف رولنسون في بغداد.

ومع ذلك في بداية شهر كانون الثاني عام ١٨٥٢ وصل إلى الموصل قنصل فرنسي جديد اسمه فكتور بلاس، ولقد أخبر هذا رولنسون عن نيته بأن يزاول أعمال الحفر في كيونيجبيك، ولذلك لم يكن من مانع لدى رولنسون نظراً لأنه كان يعتقد أن لا يارد قد نظف المكان وأخرج منه كل المواد ذات الأهمية الأثرية. وعند وصول رسام الذي كان يعرف جيداً أن هناك أشياء كثيرة ينبغي عملها في كيونيجبيك لذلك لم يمانع.

وبعد ذلك بدأ بلاس ورسام يعملان كل على حدة في أماكن مختلفة من الموقع، ولقد أحرز رسام حظاً أوفر من النجاح، فهو لم يكتشف سلسلة رائعة من النقوش النافرة من التي كانت تصور صيد الأسود من قبل آشور بانيبال فحسب تلك النقوش التي تعتبر إحدى أمجاد المتحف البريطاني، ولكن اكتشف أيضاً مجموعة من الألواح المسماة التي تؤلف مكتبة الملك والتي كانت تؤلف أسس علم الدراسات الآشورية.

وبعد ذلك دخل بلاس ورسام في منافسة للحفر في قلعة شيرجات ولكن لم ينل أي واحد من هذين الرائدتين أي نجاح هناك، ولكن كان هناك مجال مرضٍ للعمل في نمرود حيث استمر رسام في إنجاز أعمال لا يارد وكانت نتيجة جيدة ولاسيما في خورساباد، وهناك كشف بلاس عن مائة وست وثمانين حجرة أخرى في أحد القصور الآشورية بالإضافة إلى أربع عشرة غرفة كان قد وجدها بوتاً.

ولقد كان لدى بلاس أهداف تختلف عن أهداف بوتاً ولا يارد مثلاً: بدلاً من التركيز على لقيات قابلة للحمل فقد كان مهتماً باكتشاف المخططات المفصلة للأبنية وإن ما كشفه في خورساباد لا يزال أفضل مثال لقصر آشوري.

وقد عرض بلاس أيضاً بعض الرسوم الممتعة لواجهات الأبنية بعد ترميمها، ورغم مظاهر الاحتكاك ما بين الرجلين حول حقوق الحفريات إلا أن العلاقات ما بين رولنسون وبلاس كانت على مايرام، ولقد تبادل هذان الممثلان لدولتين

مختلفتين النُصب التذكارية من كيونيغيك ونمرود وخورساباد وأرسلها إلى متاحفها المختلفة ، ولكن حدثت مصيبة للأثار الغربية وهي على نهر دجلة عام ١٨٥٥ ولذلك أعيد إرسالها بواسطة كيليك بالطريقة المعتادة ، ولكن وفي المنطقة التي يلتقي فيها نهر دجلة مع نهر الفرات تعرض الركب لهجوم من بعض القبائل العربية المتمردة وهكذا غرق اثنان من الكيليك واختفت حملتاهما من الأثار في مياه نهر دجلة ، وهناك بقيت هذه الأثار تنتظر الأموال والتقنيات والاستقرار السياسي والحظ للمساعدة على إنقاذها واستعادتها.

ولقد أنهى بلاس ورسام حفرياتهما عام ١٨٥٤ وبعد رحيل رسام أنجزت بعض الأعمال في كيونيغيك من قبل شخص آخر يمثل المتحف البريطاني وهو **W.KLOFUS** (كلوفوس) الذي انحصر عمله الرئيسي في الحفر في المنطقة في جنوب بابل وقد بدأ الاهتمام الآن بالانتقال من المواقع الآشورية إلى الجنوب ، ولقد بدأ ميدان علم الأثار يظلل بتلك الأهمية التي حصل عليها تراكم الألواح المسمارية.

وفي عام ١٨٥٥ استقال رولنسون من منصبه كقنصل عام في بغداد وعاد إلى إنكلترا حيث كرس نفسه لتفسير ونشر النصوص المسمارية ، وقد كان هناك عدد من الباحثين يعملون في تفسير الرموز المسمارية ولكن كان هناك موجة من التشاؤم لدى الرأي العام بخصوص مصداقية الترجمة المقدمة ، وأخيراً قررت الجمعية الآسيوية الملكية اعتبار رولنسون وثلاثة من الباحثين الآخرين البارزين المعتمدين في تحضير الترجمات بالنسبة للنقوش الطويلة ، وعندما قورنت النتائج ظهر أنها متشابهة إلى حد كبير ، مما أثبت أن تفسير الرموز المسمارية من النظام البابلي والآشوري قد تمت بنجاح وثقة.

ولقد خولت الأمانة العامة للمتحف البريطاني رولنسون وأعطته كامل المسؤولية لتحضير سلسلة من المجلدات تحتوي على نصوص مسمارية مع أن معظم عمليات النسخ قد قام بها أناس آخرون ، وربما كان أشهر هؤلاء المساعدين شاب يدعى: جورج سميث ، وكان تحدّث لدى أحد نقاشي العملة وهو في الرابعة عشرة

من العمر، ولكن اهتمامه الشديد في التاريخ التوراتي والآثار الآشورية والنصوص المختصة بذلك الموضوع أدّى به أن يقضي معظم وقته في المتحف البريطاني.

وقد لاحظ المسؤولون هذا الاهتمام، وبعد أن أثبت بأن لديه معرفة لا بأس بها بالموضوع، قدّمت له وظيفة لوصول قطع الفخار بعضها ببعض ووصل الأنواع المكسورة المأخوذة من نينوى، وفي أثناء هذا العمل علّم نفسه كيفية قراءة وفهم الحروف المسمارية، وفي عام ١٨٦٦ عُيّن مساعداً في دائرة الآثار الشرقية حيث عمل على نسخ الألواح المعدّة للنشر.

وفي عام ١٨٧٢ أحرز جورج سميث اكتشافاً رائعاً فقد عرف أن أحد الألواح المكسورة من كيونيجيك والتي كان يشتغل في ترميمها كانت تحتوى على نظير آشوري لقصة الطوفان في التوراة وكانت إنكلترا ما تزال أمة مسيحية لديها اهتمام عميق بالتوراة.

وعندما أعلن هذا الاكتشاف وعرضه على جمعية الآثار التوراتية في شهر كانون الأول خلق هذا العرض ضجةً كبرى فقد ظهرت الأصوات التي تنادي بضرورة استئناف عمليات الحفر في كيونيجيك لإيجاد الأجزاء المفقودة من لوح الطوفان وقدمت صحيفة **Dulytelegvaph** ديلي تلغراف ألف جنيه إسترليني لهذا الغرض، مع الاقتراح الذي يشترط أن يسافر جورج سميث ويقوم بالحفريات.

سافر جورج سميث في أوائل عام ١٨٧٣ وبعد معارضات قدمها الوالي هناك بدأ بالحفريات في أيار وفي خلال أسبوع وجد لوحاً عليه نص يحتوي القسم المفقود من قصة الطوفان.

وعندها عاد سميث إلى أنكلترا في شهر تموز ولكنهم أرسلوه للمرة الثانية ووصل إلى الموصل في أوائل عام ١٨٧٤ وقد وجد عدة مئات من الألواح في موقع كيونيجيك، ولكن قلة خبرته والتعامل مع البيروقراطية الشرقية أنتج مصادرة بعض هذه الألواح، وقد نشرت قصة سفرياته وعمله المملوءة بالترجمات والمناقشات حول النصوص المسمارية، في عام ١٨٧٥ تحت عنوان (الاكتشافات الآشورية) وفي

عام ١٨٧٦ رجع جورج سميث إلى الشرق مرة ثانية ولكنه مات بمرض الدوزنطاريا دون أن يستطيع القيام بأية حفريات أخرى.

ولكن وفي هذا الوقت حدث اهتمام شعبي مرموق بالكتابة بالخط المسماري في إنكلترا وأصبح الخط المسماري هو الطراز السائد في بريطانيا، وضح نجاح جورج سميث في إيجاد مزيد من الألواح في كيونيجيك سبباً معقولاً لاستمرار التحدث بهذا الشأن.

وكان الشخص الظاهر في هذا المجال هو هرمرز رسام الذي أرسل في أواسط عام ١٨٧٧ وبعد التأخيرات الناتجة عن المطابقات البيروقراطية استطاع أن يبدأ حفرياته في شهر كانون الثاني ١٨٧٥ وقام بحملات مماثلة في عام ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨٠ و ١٨٨٢ وكان نجاحه في جميع النصوص من المواقع الأثرية الآشورية قد أدى إلى جمع مجموعتين من الألواح فيها حوالي ١٦٠٠ نص من النصوص.

وقد حملت هذه النصوص اسمه في المجلد الرابع في المتحف البريطاني، وكانت إحدى لقياته المرموقة في تل يدعى (بالاوات) على بعد حوالي عشرين ميلاً من الموصل، هي بوابة آشورية مزدوجة من الخشب (التي أصبحت مهترئة) وهي مزينة بألواح من البرونز مع وجود مشاهد حربية، وهذه الألواح البرونزية قد حفظت بشكل ملاحظ وجيد ترى الآن في المتحف البريطاني.

ولكن الجزء الأعظم من مجرودات (رسام) قد كرسّت للصوامع في جنوب منطقة ما بين النهرين وليس في آشور، فقد حدث هناك انتقال هام بالاهتمام في المواقع في بابل وكانت تقدم نصوصاً تُعدّ بالألوف، وخلال السنوات العشرين بعد إتمام رسام لعملياته في عام ١٨٨٢ لم يتم أي عمل في بلاد آشور.

هناك باحثون آخرون عدا عن الإنكليز والفرنسيين قد اشتغلوا في النصوص المسمارية وما تبعها من النصب التذكارية.

وهناك عمل هام نشر في عام ١٨٨٣ ساعد على انتشار وشهرة علم الدراسات الآشورية في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية، وذلك في المؤلف الذي نشره شرادن وهو النقوش المسمارية والعهد القديم.

وكان هذا واحداً من العوامل التي أدت إلى تأسيس الجمعية الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩ تحت رعاية القيصر، وقد رعت هذه الجمعية عمليات الحفر في بابل التي استمرت ابتداءً من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٧.

وقد اشتمل نشاطها الحفريات في قلعة شيرجات وهي مدينة آشور القديمة، وقد استمر العمل تحت إشراف **W.Andrac** (أندراك) من عام ١٩١٤.

ولم يكن عمل أندراك هذا منحصراً بالبحث عن الألواح أو الآثار الأخرى، بل في عمليات توبعت باهتمام وهوس وهي مختصة بأبحاث علم الآثار مع محاولة الكشف عن مخطط المدينة وأسوارها وأبنيتها، والعلاقات المتبادلة بينها وبين غيرها من المدن في فترات مختلفة، ولقد تركزت عملية الحفر الآشورية على الفترة ابتداءً من النصف الأول للألف الأول وقد رجع أندراك عند بحثه عن تاريخ علم الآثار إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن مع أن غرضه لم يكن الكشف عن الألواح إلا أنه وجد مجموعة لا بأس بها من الألواح ذات الأهمية العالية بالنسبة للتاريخ الآشوري وهي الدين والقانون.

وبعد الحرب العظمى الأولى أعطى الانتداب الإنكليزي على العراق أبعاداً جديدة بالنسبة لعلم الآثار وبتشجيع من جرترودييل أنشأت دائرة الآثار وفي عام ١٩٢٤ تم تأسيس متحف بغداد، وفي نفس السنة أعلن قانون الآثار الذي بموجبه وبموجب أفضل شروطه أن دائرة الآثار العراقية ينبغي أن تستلم كل اللقيات الثمينة المكتشفة من قبل البعثات الأجنبية ونصف اللقيات غير الثمينة.

أما السنوات الواقعة ما بين الحربين العالميتين فقد أتت النتائج المرموقة من المواقع السومرية في جنوب منطقة ما بين النهرين ومنها لقيات السير (ليونارد وللي) في آشور (١٩٢٢-١٩٣٤) ومع ذلك فقد حدثت بعض الحفريات في آشور مرة ثانية، وفي أعوام ١٩٢٦-١٩٣١ حضرت بعثة أمريكية في مواقع قرب كركوك وفتحت آفاقاً جديدة في تاريخ بلاد آشور في الألف الثاني ق.م وذلك بتصنيفها تحت اسم أفضل مدينة معروفة فيها وهي (نوزي) وقد وجدت ألوف الألواح ذات الأهمية بالنسبة لفهمنا المجتمع في الشرق الأدنى بما فيه تاريخ البطارقة والتوراتيين، ولقد حدثت حفريات أمريكية أيضاً فيما بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٨ في موقعين على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من الموصل وهو (تل بيبلا) حيث صنع ليارد بعض الحفريات وتيب جاورا، وكان كلا الموقعين هامين في كون تلك الفترات المتتالية من الاحتلال كانت ترجع إلى عهود قديمة جداً وفي حالة تيب جاورا كانت تعود إلى العصر الحجري الحديث.

ولقد قامت بعثة أمريكية تابعة لجامعة شيكاغو بالحفر في خورساباد عام ١٩٣٥ متجاهلة حقوق الفرنسيين القديمة بالحفر، وكانت الأهمية الرئيسية لنتائج أعمال تلك البعثة هي إحداث بعض التصحيحات في مخططات المدينة والأبنية التي نشرها فريق (بلاس) قبل سبعين عاماً مضت.

وفي أثناء نفس الفترة أعاد المتحف البريطاني والمؤسسات التابعة له عمليات الحفريات في كويونجيك (١٩٢٧-١٩٣٢) وكانت أهم تطورات هذه الأعمال هي محاولة فحص فترة ما قبل التاريخ في ذلك الموقع عن طريق الحفر العميق الذي أعاد تاريخ الاحتلال إلى الألف الخامس ق.م، وكان هذا العمل صعباً جداً من وجهة تقنية بحيث كان الشخص المساعد والمسؤول وهو م. ي. ل. مالون كان مجبراً أن يحفر حفرة عمقها تسعون قدماً للوصول إلى الأرض البكر وذلك للحصول على معلومات مستفيضة حول المستويات التابعة لفترة ما قبل التاريخ المختصة بالاحتلال والاستيطان في تلك المناطق، قام مالون كذلك وفي عام ١٩٣٣ بالحفر في الموقع القريب وهو (أرباشية) حيث لم يحصل أي احتلال في تلك المناطق.

وكان المظهر الدولي العريض للأبحاث الآشورية فيما بين الحربين العالميتين قد ظهر في اشتراك بعثة إيطالية بدأت موسماً من الحفريات عام ١٩٣٣ في مدينة آشورية تدعى (كاليزي) (قرأت سابقاً باسم كاكوزو إلى الجنوب الشرقي من أربيل).

ولقد منعت الظروف السياسية استمرار العمل، وكان هذا لسوء الحظ من وجهة نظر علمية، حيث إن السكان المحليين هناك وجدوا وهم يحفرون دون إذن من السلطان ألواحاً مسمارية لا تزال تعود إلى ملكية خاصة لم ينشر أي شيء عن هذه الألواح ولم يقرأها أحد.

إن الحدود الآشورية القديمة لا تتطبق بدقة مع حدود الجزء الشمالي من دولة العراق الحديثة، ونتيجة لذلك هناك مواقع في شمال شرق سورية لها علاقة بتاريخ آشور، ولقد جرت أعمال الحفر في بعض هذه المواقع مع الحصول على نتائج مهمة، وكان أشهر هذه هي حفريات تل خلف قرب منبع نهر الخابور والتي قام بحفرها (بارون ماكس فوان وابنهايم) قبل الحرب العظمى الأولى وبعد العشرينات من القرن العشرين ١٩٢٠ وقد كان أهمية هذا الموقع تعود لسببين:

أولاً: لكونه مصدراً من مصادر تأمين الوثائق المسمارية المتصلة بمركز ولاية آشورية وهو (جوزانو).

وثانياً: لكونه موقعاً يعود إلى أحد المواقع الثقافية في فترة ما قبل التاريخ لمنطقة أصبحت تدعى آشور.

ولقد فحص بالوان ابتداء من عام ١٩٣٤ تلالاً رئيسية أخرى في منطقة نهر الخابور، وهذه المناطق مهمة بالنسبة للتاريخ الآشوري إلى أن أوقفت الحرب العالمية الثانية جميع الأنشطة في مجال علم الآثار، ولقد كان آخر وجه من أوجه إعادة اكتشاف آشور قد بدأ عندما قرر (مالوان) إعادة فتح مشروع الحفريات في نمرود عام ١٩٤٩، وقد استمر العمل متقطعاً حتى عام ١٩٦٣ وقد كان مالوان المشرف على هذا العمل شخصياً أو عن طريق بعض علماء الآثار الشباب الذين يعملون تحت جناحه.

ولقد بدا أن معظم علماء الآثار البريطانية كانوا يحاولون أن يلتزموا عن وعي أو بدون وعي بالنموذج الذي اختطه لايارد ولكن مالوان كان قادراً على فك النموذج بشكل أفضل.

ولقد أحرز نجاحاً بالنسبة للقياسات من الممكن مقارنته بنجاح لايارد، ومع أن مظاهر قليلة جديدة قد فتحت بالنسبة للحياة الآشورية (ماعدا سور الحرفا) إلا أن العمق والتفاصيل قد أضيفت إلى معارفنا لآشور في عدة نقاط، ولكن نجاحاته قد بدت وكأنها حجر عثرة بالنسبة لبعض علماء الآثار المتأخرين الذين كانوا مدينين في كثير من الفرص لمجهوداته.

وهنا نجد إحدى السيدات الناقدات تكتب في عام ١٩٨١ باشمئزاز عندما تشير إلى أعمال مالوان وهي تقول:

((إن أثراً بغيضاً متخلفاً من مخلفات القرن التاسع يؤكد الناحية الموجهة نحو المادة أكثر من التأكيد على المعرفة وعن الأهداف الموجهة نحو السلوك الحسن، خصوصاً أنه وقع في الإثم عندما فكر أن المجموعة الرائعة من العاجيات المنحوتة التي اكتشفها هي كنز من الكنوز)).

ولكن بدا الهدف الوحيد لتخصيص الأموال العامة لمصلحة علم الآثار وهو أن يغني حياة أولئك الأشخاص غير المهتمين بعلم الآثار الذين يدفعون المال في آخر الأمر، ومن المؤكد أن جمال العاجيات الآشورية المنحوتة لها دورها الذي سوف تلعبه تجاه تلك الغاية على الأقل من حيث العلم بالتفاصيل الخاصة بمثل هذه القضايا مثلاً قضية ملكية الأراضي.

لقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها مالوان في بلاد آشور آخر حفريات حدثت حسب الأسلوب القديم وهو الذي كان يسير ضمن خطوات ذات نتائج سريعة يقصد بها كسب اهتمام الرأي العام وذلك طبقاً للمثل اللاتيني الذي يقول:

Sic briviter gloria mudi

ومعناه: هكذا يمر المجد الدنيوي وبسرعة.

لقد جرت أعمال الحفريات التالية في شمال العراق ولكن على نطاق أضيق إذ قد أثرت عليها أهداف مختلفة وأسهمت عوامل كثيرة في الوصول إلى تلك النتائج، وإحداها: تنقيح قانون الآثار العراقي بعد ثورة عام ١٩٥٨ حين ألغيت حقوق البعثات الأجنبية بالحصول على نصف اللقيات المتطابقة أي: التي لها مثيل طبق الأصل، ولقد أزال هذا الإجراء أي حافز لإعطاء الأفضلية لأي نوع من المواقع الأثرية الذي من المنتظر أن يكشف عن آثار تستحق أن توضع في المتاحف.

أما العامل الآخر: فهو عامل مادي مالي، فقد ارتفعت تكاليف العمل في العراق ارتفاعاً فاحشاً منذ عام ١٩٥٨ فقد أصبحت الآن وفي عام ١٩٨٣ في مستوى الأسعار في البلدان الغربية، وهذا ما منح الأفضلية للمواقع الصغيرة التي تمتاز بأن الطبقات الاستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف بأطلال المراحل اللاحقة بها.

وهناك عامل ثالث: وهو أن السلطات العراقية أصبحت تعتبر أن المواقع الأثرية هي من الأماكن السياحية التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم، ولهذا فقد ضغطت السلطات العراقية على البعثات القائمة بالحفريات أن تقبل مسؤولية ترميم الأنصاب باعتبار ذلك تكملة للحفريات، وهذا أمر مكلف مادياً لاسيما إذا احتوى الموقع بنايات كبيرة ومنحوتات، وهناك أيضاً قضية المراحل التاريخية وأي مرحلة هي بحاجة ماسة إلى شرح وتوضيح أكثر من غيرها. ونتيجة لهذه العوامل المتراكمة انحصرت أعمال الحفريات التي تجري في آشور منذ زمن بعثات المدرسة البريطانية في نمرود، في الواقع أقدم عهداً من زمن الإمبراطورية الآشورية.

ومع ذلك فلم تهجر المواقع الإمبراطورية الآشورية نهائياً، إذ عمد فريق بولندي إلى إجراء بعض الحفريات في نمرود في محاولة لحل بعض المشكلات المتروكة منذ أيام لايارد ومالوان، هذا وإن السلطات العراقية التي انتخبت علماء آثار من وزن عالٍ جداً قد قامت بأعمال مهمة في كل من شريف خان (وهي تاربيزو القديمة الواقعة إلى شمال نينوى) وفي كيونيبيك، وقد انحصر العلم في المواقع

الأخيرة في المحافظة على النصب وترميم الأبنية، مما جعل أسوار وتحصينات
وبوابات سنحاريب ماثلة للعيان مرة ثانية ليراها جميع المهتمين بهذه الأمور، وفوق
ذلك فإن العالم مدين للسلطات العراقية ولعلماء الآثار العراقيين لإنقاذهم نينوى من
التجار الفارين الذين كانوا قد خططوا لإقامة وبناء منازل وأبنية في ذلك الموقع.

انتهت الترجمة في ٢٦/١١/٢٠٠١ .